# صفحة من تاريخ محمد علي
## مؤسس مصر الحديثة

تأليف
السير سارش ميري

ترجمة
سليم حسن - طه السباعي

الكتاب: صفحة من تاريخ محمد علي .. مؤسس مصر الحديثة
الكاتب: السير سارش ميري
ترجمة : سليم حسن وطه السباعي
الطبعة: 2018

الناشر: وكالة الصحافة العربية ( ناشرون)



5 ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف : 35825293 – 35867576 – 35867575
فاكس : 35878373

http://www.apatop.com E-mail: news@apatop.com



دار الكتب المصرية
فهرسة إثناء النشر

سارش ميري ، السير
صفحة من تاريخ محمد علي .. مؤسس مصر الحديثة / السير سارش ميري – الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
74 ص، 18 سم.
الترقيم الدولى: 6 – 613 – 446– 977– 978
أ – العنوان رقم الإيداع : 25363 / 2018

# صفحة من تاريخ محمد علي
# مؤسس مصر الحديثة





**إلى أبناء وطننا الكريم:**

ما زالت الأمم بأحاديث أبطالها مغرمة ولوعة، وما برحت الشعوب إلى أخبار عظمائها شيِّقة نزوعة؛ وقد أتاح الله لهذه الأمة في رأس أسرتها الحاكمة بطلاً من تصن بمثله الأيام، ويزدان بقصته تاريخ الأيام.

ولكن الذي يدعو إلى العجب أن تخلو مكاتبنا العربية من كتاب قائم بذاته يتعرض لهذا الموضوع الشائق، ويتناول سيرة هذا النابغة العظيم. لذلك ما كدت أعثر على هذه الرسالة، وأتصفح ما حوت من لذيذ الأنباء وممتع الأخبار، واستطلع ما تضمنت من صادق النظرات وصائب الأقوال، وأتبين منها مبلغ اهتمام الغربيين بسيرة بطلنا الأكبر، وشدة شغفهم بالوقوف على غوامض أسراره وبواطن أحواله، حتى اتضح لي مكان الفائدة من نقل هذه الرسالة إلى العربية. فاقترحت على صديقي الفاضل: المؤرخ المقتدر سليم أفندي حسن أن نقوم بترجمتها ونشرها؛ فباشرنا العمل على ثقة بأن الكتاب– مع صغر حجمه وضيق نطاقه– سيقع من قلوب المصريين كافة، موقع الماء من ذي الغلة الصادي. وأنَّا لنرجو أن يكون هذا العمل الصغير، فاتحة الاهتمام بتاريخ ذلك البطل الكبير؛ حتى تبرز صورته نصب أعيننا في الموضع اللائق، وحتى تؤثر سيرته في نفوسنا الأثر الواجب،

**طه السباعي**

**القاهرة في** 13 **رمضان سنة** 1337

## مقدمة

ولد السير شارلس مري، وهو ثاني أنجال الأول دنمور، في الثاني والعشرين من شهر نوفمبر سنة **1806**، وتلقى العلوم في كلية أيتون وجامعة أكسفورد، ونال درجته في الحادية والعشرين من عمره؛ ثم قضى في السياحة بضع سنين يتنقل في أنحاء أوروبا وشمال أمريكا،

وعين بعد ذلك حاجباً في حاشية الملكة فيكتوريا ولم تمض إلاَّ أشهر قلائل حتى عين قهرمان في القصر في سنة **1838**. وهو صاحب مؤلفات جمة، وكان كثير الاختلاط برجال الأدب، وطالما اختلف إلى مائدة صموئيل روجر(*) حيث كان يلتقي بماكولي(*) وسيدني سمث(*) في ميادين الحديث والمناظرة.

وفي سنة **1844** عين المستر مري سكرتيراً للسفارة في نابولي، ثم عين في سنة **1846** قنصلاً عاماً للدولة الإنجليزية في مصر؛ وكان محمد علي يؤمئذ لا يزال واليًا على وادي النيل. فكان الأثر العظيم الذي انطبع في ضميره عن مقدرة ذلك الأمير وأعماله، والرأي الجميل الذي استقر في نفسه عن حسن سياسته وصواب خطته باعثين له على تدوين هذه الخواطر التي لا تزال إلى اليوم عظيمة القيمة والفائدة نظراً إلى تعمق صاحبها في معرفة أخلاق الشرقيين وتبحره في درس لغات المشرق وتاريخه.

وقد عثرنا بين مذكرات المستر مري على الخبرين التاليين وهما يدلان على أن أساليب محمد علي في الحكم لا تنطبق كل الانطباق على الطرق الحديثة المقبولة-:

"في مساء اليوم السابع من فبراير سنة **1852** دار بيني وبين عباس باشا حديث طويل عن تاريخ أسرته؛ فوقفت منه على كثير من الأخبار الغريبة عن أخلاق الأتراك وأحوالهم. وكان سموه يتبسط في الكلام بلا تحفظ؛ فذكر لي إن أباه طوسون باشا مات مسموماً بأمر محمد علي، قائلاً أن هذه حقيقة لا يخالجها شك ولا ارتياب. فقلت له أني سمعت بهذه القصة من قبل، بيد أني كنت لا أصدقها على الاطلاق، لعلمي أن طوسون ما فتئ أحب أولاد محمد علي إلى أبيه .

"فأجاب الوالي قائلاً: (نعم لقد كان كذلك زمناً طويلاً، ولكن أباه حسده في نهاية الأمر على محبة الجيش إياه وأصبح يرى في ذلك خطراً على نفسه، فأصدر أمره بأن يسمُّوه. وكان طوسون قد أولم ذات ليلة وليمة عظيمة، دارت فيها المترعات من الكؤوس والراقصات من القيان، فبينما القوم لاهون في شأنهم، شرب طوسون كأسين من الخمر كان السم قد دس له فيهما، فلم يعتِّم أن شكا دوارا في رأسه فرقد في فراشه وفاضت روحه بعد ست ساعات)".

"فسألت سموه عما إذا كان قد سمع من الأدلة ما يثبت وقوع هذه الفاجعة بأمر محمد علي

"فقال: نعم (عندي على ذلك برهان قاطع، لما توفى طوسون انطلق الناعي بخبره على جناح النعامة إلى القاهرة، وبلغَّ النبأ في الحال إلى حاجب محمد علي. ولما كان الحاجب يجهل مقاصد سيده، ويخشى سوء العاقبة أن هو باغته بنعي ولده المحبوب، عمد إلى إعلامه بالخبر على سبيل الحذر والاحتراس. فدخل على الوالي في غرفته وقال :

"مولاي: قد وافانا الساعة خبر عن طوسون باشا،

"فأجفل محمد علي وقال: متى كان ذلك، وكيف مات؟، ثم شرع يتظاهر بأشد الحزن ومنتهى الجزع .

"واستمر عباس قائلاً. "فكيف استطاع أن يعلم من عبارة الحاجب أن ابنه، الذي كان في شرخ الشباب وريعان الصحة، قد وافته المنية ما لم يكن هو الآمر بقتله؟".

"فأجبته معترفاً بأن الدليل قوي راجح وقطعت الحديث في هذا الشأن.[1]

"ولما كنت في أنست من سموه الرغبة في المحادثة سألته أن يوقفني على جلية الأمر في ذلك السر الغامض: حقيقة نسب إبراهيم وصلته بمحمد علي.

[1] ذكر الجبرتي هذه القصة على غير هذا الوجه مبرئاً محمد علي من هذه التهمة والجبرتي– كما هو معلوم– معاصر لمحمد علي وكان معروفاً بالتحامل عليه.

"فأجابني سموه قائلاً: أنت تعلم أن إبراهيم لم يكن قط صديقاً لي، وقد كان وَكدُ محمد علي ودأبه أن يبذر بيننا بذور العداوة والبغضاء، ولقد حاول إبراهيم أن يقتلني، ولكن ذلك لن يمنعني من قول الحق في صحة نسبه وصدق بنوته لمحمد علي وقد بلغني النبأ الحق في هذا الشأن من عجوز كانت تلوذ بالحريم أيام طفولتي، وكانت مرضعة لأبي وتحبني حباً جماً، فأخبرتني أن محمد علي تزوج بامرأته على أنها عذراء، وأن أول مولود رزقه منها كان بنتاً توفيت وهي طفلة، وثاني مولود هو إبراهيم. ومن هذه الزوجة رزق أيضاً طوسون وإسماعيل ونازلي هانم .

"وذكر لي سموه أن محمد علي فكر غير مرة في اغتيال إبراهيم ولا بدع فقد اغتال طوسون وأمر بقتل نازلي أنفة وحمية ولكن عباس أنقذ حياتها بالشفاعة لدى أبيها الحمى الأنف".

وأقل من هذه القصة مذمة وإن لم يكن أقل منها دلالة على أخلاق الحاكم الشرقي الغيور على إنقاذ ضروب الإصلاح ما يرويه المستر مري عن محمد علي في موضع آخر من مذكراته حيث يقول .

"كان بالإسكندرية ضريح لأحد المشايخ يحول دون تنفيذ مشروع من مشروعات المباني التي وضعها محمد علي. فأراد أن يزيل هذه العقبة من طريقه، ولكنه خشي أن يصادم الجمهور في عواطفهم الدينية. فخطر بباله تدبير مكَّنهُ من تنفيذ مأربه، دون أن يحط من كرامة الشيخ ومنزلته. وذلك أنه جمع سراً عدداً عظيماً من العمال، ثم اختار ليلة حالكة الظلام فأمرهم بهدم الضريح وبنائه مرة أخرى في مكان أكثر ملاءمة من مكانه

الأول. وقبل مطلع الفجر كان العمال قد أخرجوا من المدينة، فلما استيقظ السكان لم يكن لهم حديث إلاَّ ما أظهره الولي من الكرامة بنقل ضريحه من حيه الأصلي إلى حي آخر".

وقد لبث المستر مري قنصلاً عاماً لدولة الإنجليز في القطر المصري سبع سنين وتقلب بعد ذلك في عدة مناصب سياسية حتى اعتزل العمل في سنة **1874**، وكان إذ ذاك سفيراً في لشبونة. وقد توفى في باريس وهو في التاسعة والثمانين من عمره. ولسوف يذكره على مدى الأيام كل من أسعده الحظ بصداقته فعرف منه تلك المواهب الجمة المتنوعة وتلك الشمائل الرقيقة الخلابة وذلك العطف والمواساة لكل من طلب رفده والتمس معونته.

**هربرت مسكويل**

## صفحة من تاريخ محمد علي

في باكورة القرن التاسع عشر ظهر في حروب مصر رجل خامل المنصب مغمور الذكر، يجمع بين التجارة والجندية؛ بيد أنه، على فقره وحيل صغار التجار، ما كاد يتقلد زعامة نفر من الجنود حتى أثبت أنه وُلد للمجد والسيادة، وخلق للإمارة والقيادة .

والواقع أنه ما كان بين جماعة العثمانيين والمماليك الذين كانوا يتنازعون يومئذٍ على تراث الفراعنة المحفوف بالمخاطر، من يضارعه في صفات القائد البارع والسياسي المحنك. فلا عجب أن يصير قائداً عاماً. بل أميراً مطاعاً، ولا بدع أن يهيئ لنفسه من أنقاض الدولة العثمانية وأشلائها الممزقة، دولة قوية متماسكة؛ تفوق في قوتها وبأسها ما شيدته الدول الأوروبية بسلاحها وجاهها على أطلال اليونان القديمة، وما كان أبسلانتي[2] يطمح عبثاً إلى إنشائه، بمعونة روسيا، على ضفاف الدانوب.

سار محمد علي في حكم الدولة التي انتشلها من مخالب الفوضى سيرة أبي بكر أو حيدر علي[3] بأساً وشدة ويقظة. وكان من جهله وجشعه

---

[2] هو إسكندر أبسلانتي من أسرة يونانية عريقة وكان من أمانيه تحرير بلاد اليونان وقد عينه الباب العالي أميراً على مقاطعة الأفلاخ في رومانيا وظل أميراً من سنة **1774** إلى سنة **1804** ثم خلع بناء على طلب نابليون فهرب إلى بطرسبرج وعاد في سنة **1821** إلى بلاده على رأس جمعية "الهيتاريا" التي كان غرضها استقلال اليونان ولكن الأتراك هزموه وجموعه شر هزيمة في سنة **1822**.

[3] هو سلطان ميسور من أكبر إمارات الهند. ظل ينازع الإنجليز ملك الهندستان من سنة **1761** إلى يوم وفاته في سنة **1782** ويعد من أعظم أمراء الهند في القرن الثامن عشر.

يرى بنفاذ بصيرته أن رغد الرعية ورخاءها مما يزيد من قوة الحكومة وسلطانها. وإذا كان يخطئ أحياناً في اختيار الوسيلة المؤدية إلى غرضه، فلقد كان يثابر على طلب هذا الغرض بعزم لا يكل وهمة لا تفتر. وأقل ما يقال عنه أنه وجد بين يديه فوضى مخوفة فاستخلص منها نظاماً ناقصاً. ولئن كان في حكمه ظالماً مستبداً، فلقد يشفع له أنه حمى رعيته من كل ظالم غيره، ومستبد سواه، وأنه أغدق عليهم من نعمة الأمن ما لم يتمتعوا به منذ دهور مديدة. هكذا كان محمد علي مؤسس مصر الحديثة، وقائد من أعظم قادة المسلمين الذين خرجوا إلى الوجود منذ وطئ طارق أرض الجزيرة الخضراء، وأطلق اسمه الخالد على تلك الصخرة القحلاء.

وُلد محمد علي في قوله، وهي بلدة صغيرة من أعمال الروملي، تجاه جزيرة طاشيوز الذهبية، وكان مولده في سنة **1769** ولكن يوم الميلاد بعينه مجهول. ومن عجائب الاتفاق أنه في هذه السنة ذاتها وُلد نابليون بونابرت وولنجتون. وكان أبوه إبراهيم أغا فلاحاً يعتمد في معاشه على صيد السمك شأن الجانب الأعظم من ساكني السواحل وعلى قطعة صغيرة من الأرض يستغلها استغلالاً ناقصاً مشوباً بالإهمال كسائر فلاحي الأتراك يومئذ. وكان فضلا عن ذلك رئيس فئة من الحرس المقدَّمين من القرى المجاورة لحراسة الطرق. ولما توفى إبراهيم أغا، كان ابنه محمد علي لا يزال طفلاً، فنشأ في قصر حاكم البلدة التي هي مسقط رأسه؛ وكان غلاماً براق العينين ذكي الفؤاد يتدفق نشاطاً ومرحاً فما لبث أن أصبح ذا حظوة لدى شاربي النراجيل وحاملي الشبكات الذين كانوا يلوذون بقصر الحاكم فيقضون الوقت في حجراته وأروقته. وكان الفتى يظهر

كياسة نادرة ومهارة بارعة في فض ما ينشأ بينهم من المنازعات على الطبنجات الحلبية المسكفتة والصوارم الدمشقية اللينة. وكان يلم بطرف يسير من القراءة وأقل من ذلك إلمامه بالكتابة، كما أنه حفظ سورة الفاتحة عن بعض الفقهاء الوقورين الذين كانوا لا يمتازون عنه علماً ودراية. وفي ذلك العهد قد حصَّل محمد علي كل ما أحرزه من زهيد نصيبه في العلم فإنه ما لبث أن تولاه بعدئذ من المشاغل ما صرفه حتى عن تحصيل تلك المعارف السطحية الطفيفة التي كانت تعد من اللوازم الضرورية للغلام التركي منذ ثمانين عاماً. وكثيراً ما كان يقول بعد ذلك العهد بزمن طويل "ما قرأت قط من الكتب إلاّ وجوه الرجال، وقلما كنت أخطئ في قراءتها".

في ذلك الوقت أيضاً كان يقيم في قوله أحد أولئك الفرنسيين المتجولين الذين يوجدون في معظم الثغور العثمانية على السواحل الشرقية من البحر الأبيض المتوسط، فتراهم هنالك غادين رائحين، يجفخون بوطنهم ويرهقون قناصلهم، ويملؤن آذان السامعين بأحاديث غرورهم وسخافات مشروعاتهم. بيد أنهم أصحاب مرح وصراحة شديدو الافتخار باتخاذ المعارف والأصدقاء من الأتراك وهم أحب أهل أوروبا إلى الشرقيين ولعل السبب في ذلك أنهم أقل من غيرهم تعسفاً وعجرفة، لهذا تجد العثمانيين الذين هم في الجملة معروفون بالنفور من الأجانب يسارعون إلى مصاحبتهم ومخالطتهم، وتجد كلا الفريقين يرتاح جد الارتياح إلى هذه المخالطة، وإن كانت في حد ذاتها من الغرابة بمكان. إذ الواقع أن التركي ينظر إلى الفرنسي بنوع من الكبرياء الممزوج بالرحمة،

والازدراء الملطف بالعطف، كما ينظر السيد إلى كلبه الصغير الذي يسلِّيه بألاعيبه ومراحه، ولا يضايقه كسائر الكلاب بهريره ونباحه. أما الفرنسي فيعتبر الأتراك شعباً منحطاً متوحشاً لا يزالون في حاجة إلى التنظيم والتهذيب، وهذا جل ما يتمناه لهم ويرومه. فهو يكد ذهنه في استنباط التدابير لتنظيمهم واقتراح الوسائل لترفيهم، ويا كثرة ما تجد لديه من أمثال هذه التدابير اللذيذة والمقترحات الطريفة. أضف إلى ذلك أنه يرى في التركي مثالاً غريباً من أمثلة التاريخ الطبيعي، وكتلة حسنة ينشر عليها ما شاء من النظريات المهلهلة والمبادئ الواهية. وكذلك ترى الفريقين، على ما بينهما من سوء التفاهم التام، يتفقان أعجب الاتفاق ويعيشان في أحسن الوئام.

كان الرجل الفرنسي الذي أقام في فوله منذ ثلاثة أرباع قرن يدعى ليون. وكان أحد صغار التجار، والأرجح أنه كان وكيلاً لأحد المحال التجارية في مرسيليا: المدينة التي قدم منها. فبينما هو يتجول في أنحاء البلدة الصغيرة إذ عثر على محمد علي فأعجب بذكاء الغلام ونشاطه وأثره. فمال إليه بدافع الشفقة والحنان وغمره بفيض الرأفة والعطف ولقنَّه أسرار التجارة وأفهم رأسه بكل فكرة طريفة وخاطر خلاب عن مجد الأمة الفرنسية وسؤددها. وقد رسخت هذه الخواطر في ذهن الغلام وانطبع أثرها في نفسه طول عمره فلم يطمس معالمها كر الأيام، بل لبثت نصف قرن وهي واضحة جلية كأول عهدها يوم ارتسمت في مخيلته. وظل محمد علي يستشعر لمواطني صديقه حباً لا يتزعزع وإعجاباً لا

يتناقص حتى سقطت مدينة عكا[4]. ولما انقضى خمسون عاماً على ذلك العهد كان الأمير لا يزال يذكر ما تلقاه على صديقه وهو غلام مغمور الذكر من ضروب الشفقة وعجيب الخواطر، فإنه ما كاد يسمع أن المسيو ليون عاد إلى فرنسا خائب الأمل سيئ الحال حتى كتب إليه يدعوه إلى القدوم إلى مصر حيث ينتظره الحظ المقبل والجد السعيد. ولكن المنية وافت المسيو ليون يوم أزمع الرحيل إلى مصر، فما كان ذلك ليثني الأمير الكريم عن كرمه، إذ أرسل إلى أخت صديقه التاجر هدية **400** جنيه: دليلاً ناصعاً على حسن وفائه وثبات عهده لرفيقه القديم.

لا تزال الخرافات والأساطير تجد منبتاً خصيباً وتربة مريعة في تراجم عظماء الرجال. بيد أنَّا لا نرى بأسّاً من ذكر أحدوثة عن محمد علي قبل ميلاده، وذلك أن أمه، وهي حامل به، رأت في المنام حلماً قصِّته على أحد أولئك الدجالين المنتشرين في الشرق ممن يدعون الكهانة وتأويل الأحلام. فأنبأها أن الجنين الذي يضطرب في أحشائها سيبلغ ذات يوم أرفع مراتب المجد ويتنسم ذروة العلياء. ويقال أن هذه النبوءة أخذت من مخيلتها كل مأخذ، وأنها طالما كانت تكررها على مسامع ولدها، فما زالت تحرك في نفسه الطموح عوامل الطمع حتى أثمرت ثمرها، وحققت وعدها. إذ لا نزاع في أن الغلام، بمزاجه الحاد وذكائه العجيب. مازال يحرص على تحين الفرص لإظهار نفسه وإعلاء شأنه، والحظ– كما تعلم–

[4] كان محمد علي قبل سقوط هذه المدينة في سنة **1840** يطمع في نصرة فرنسا له في حربه مع الدولة كما منته فلما تغلبت عليه دول الحلفاء ولم تنجده فرنسا في موقفه الحرج قطع الرجاء من معاضدتها وأصدر أمره إلى ابنه إبراهيم بإجلاء بلاد الشام.

عروس لا تستعصي قط على الخاطب الجريء. فما لبث الفتى إلاّ قليلاً حتى سنحت له فرصة حسنة.

أبى سكان قرية في إقليم قوله دفع ضريبة مفروضة عليهم بدعوى أنه قد سبق جمعها منهم؛ ولعلهم محقون في دعواهم. وكانت هذه الضريبة هي ضريبة الخراج الممقوتة وهي جزية يدفعها الرعايا المسيحيون في الدولة العثمانية ولا تزال مصدراً للمتاعب ومنبعاً للنزاع، وكانت الرعية تمقتها: أولاً لما يلازمها من معاني المذلة، وثانياً لما فيها من الأجحاف. وكانت الفكرة السائدة بين الحاكمين والمحكومين أن هذه الضريبة لم تكن في الأصل إلاَّ جزية فرضت على الشعب المقهور فداء لأرواحه عاماً بعد عام. ولكنها لم تكن في الحقيقة ونفس الواقع إلاّ بمثابة بدلية يدفعها الرعايا المسيحيون العثمانيون في سبيل الإنفاق على الجيش الذين هم معفون من الخدمة فيه.

وكانت ضريبة الخراج ممقوتة بنوع خاص في بلاد الروملي، حيث كان ثلاثة أرباع السكان من المسيحيين، وكانت أنظمتهم الخاصة تساعدهم أحسن مساعدة على مقاومة الحكومة .

لا أظن أن دعائم الفوز تكون خليقة بالثبات وثمار النصر جديرة بالبقاء ما دام القاهرون والمقهورون مختلفي الديانات. لذلك ترى أنه حيثما وفق المسلمون إلى إقامة الدين الحنيفي مقام غيره من الأديان، كما فعلوا في كثير من الممالك الأسيوية، ظل السلطان لهم ثابتاً والحكم باقياً إلى يومنا هذا. أما حيثما عجزوا عن ذلك، كما وقع لهم في كل مكان

بأوروبا، فإن أركان حكمهم ما زالت مزعزعة، وثمار فوزهم ما فتئت مهددة. وهكذا كان شأن العثمانيين مع اليونان فإنه بعد أن تقوضت أركان الدولة البوزنطية على أثر ما كان بين أواخر ورثة قسطنطين المتعصبين وأعقابه المخرّفين من المنازعات الدينية الحمقاء والخلافات المذهبية الخرقاء، سمح الفاتحون لليونانيين بالبقاء على دينهم وأذنوا لهم في اختيار رؤساء أساقفتهم ورخصوا لكل طائفة بانتخاب زعماء من أنفسهم يحسمون ما ينشأ بينهم من المنازعات والخصومات. ولم يحفظ السلطان لنفسه إلاّ حق تعيين البطريق وكان حتى في هذه الحالة يراعي عواطف الفنار[5] أدق المراعاة ومتى تعين البطريق كانت له السلطة المطلقة والكلمة النافذة .

ولم ينشب اليونانيون أن تصرفوا كل التصرف في استعمال هذه السلطة الكبيرة، حتى حولوها عن وجهها الأصلي، فصار لكل قرية، حتى أصغر القرى، قسيس وأوده باشا وكان هؤلاء الأشخاص يؤدون في الحقيقة وظائف القضاة والحكام، ويفرغون قصارى جهدهم في محو كل سلطة سوى سلطتهم، ويناصبون القضاة والبشوات الأتراك بنوع خاص، فلم تكن قضية من القضايا تحال على ولاة الأمور العثمانيين إلاّ في الندرة. وكان الفرد من الرعية يفضِل تحمل أقسى ضروب المظالم من بني طائفته على الإذعان لأخف حكم يصدره عليه أحد الأتراك. وكانوا

[5] هو في الأصل حي من أحياء القسطنطينية اختص بسكناه من تخلف بها من اليونان بعد افتتاحها على يد محمد الثاني سنة **1453** والمقصود من هذا اللفظ في هذا المقام وفي غيره من هذه الرسالة الجالية اليونانية وبطريقها المقيمون في عاصمة الدولة.

بوثيق اتحادهم وعظيم مكرهم وخفي دسائسهم وحسن براعتهم في تقديم الرشى وأعمال الدهاء يتمكنون من مقاومة بشواهم والاستخفاف بصولتهم حتى إذا أنسوا من أحد الحكام صلابة وعناداً، لم يجدوا صعوبة كبيرة في سبيل عزله بما يأتونه لدى الفنار من ضروب الوشاية وتحريف الحقائق وكان الأتراك؛ الذين اجتمع فيهم كل ما يتصف به الشعب القاهر من فضائل ورذائل والذين كانوا على فظاظتهم وقساوتهم واستبدادهم أهل صراحة وبساطة في معاملاتهم، يعجزون عم مغالبة أولئك الدعاة الماكرين والمواربين الخداعين. وإذا لم يكن الباشا من القوة بحيث يزدري من تحته من الرعية ومن فوقه من الحكام كان مركزه حرجاً لا يطاق. فإن كان قد ورث منصبه عن أبيه، كما هي العادة، لم يكن في استطاعته أن يحتاز من الأملاك ما يكفل له السلامة والأمن، لأن السلطان هو الوارث لجميع الموظفين. ولم يكن بيت من بيوت الولاة يخلو من جواسيس يكتبون على صاحبه كل ما يملك حتى من أدوات المطبخ والإسطبل. ولم يكن في استطاعة البشوات أن يجمعوا الثروة عن طريق التجارة لأنهم كانوا يجهلون حتى أبسط مبادئها، ولا غرو فالسيد التركي ارستقراطي بطبيعته. فإذا اعتبرت مع ذلك أنه كان من جهة مضطراً إلى إشباع جشع ولاة الأمور في الأستانة بالهدايا السنية آناً بعد آن وإلاّ وافاه خلفه حاملا عهد التعيين وحبل المشنقة، وأنه كان من الجهة الأخرى مضطراً إلى إخماد أنفاس رعاياه المشاغبين حتى لا يجدوا أدنى فرصة للتذمر وإلاّ أصبح مركزه مهدداً وربما أضاع حياته مع ضياع مركزه: نقول إذا اعتبر القارئ كل ذلك تبين مبلغ الصعوبة التي كان يعانيها الباشا في

إرضاء كلا الفريقين. فلا بدع أن ينقلب إما ظالماً وقحاً غشوماً يثور في وجه سلطانه متى حاول عزله من منصبه، وإما جباناً مستضعفاً جامداً لا يعدو أن يكون آلة وألعوبة في أيدي زعماء رعيته .

غير مستبعد في الظروف المعتادة أن يعمد حاكم قوله، وقد رأى من رعيته الامتناع من دفع الضريبة، إلى الكف عن مطالبتهم بها سواء كانوا محقين في امتناعهم أو غير محقين، إذ كان هذا هو الطريق المضمون والسبيل المأمون لحاكم صغير الشأن مثله، وكان حسبه أن يقبض على بعض المتسكعين والمتشردين من باب الرسميات فلا ينشبون أن يفلتوا من السجن بعد ساعات قلائل، ثم يتقدم القسيس وأوده باشا، فيتكلمان في الأمر طويلاً. وتقرب هدية من الحملان، وربما قدمت رشوة من المال إلى بعض المقربين في قصر الحاكم، وبذلك يقضى الأمر ويفض المشكل. ولكن الذي حدث في هذه المرة أن الحاكم كان في حاجة ماسة فكان قد عقد عزمه على استيفاء الضريبة عادلة كانت أو غير عادلة.

فبينما هو يجيل الرأي في أي الوسائل يتخذ تقدم إليه محمد علي عارضاً عليه خدمته ومصرحاً، بذلك الحماس الصبياني القليل الاكتراث للعواقب، أنه يستطيع في الحال إخضاع العصاة من القرويين وردهم إلى صوابهم. فلما سمع الحاكم هذا التصريح من الفتى الفخور دهش وسر في آن واحد، وإذ كان قد أعيته الحيل أمر بوضع ثلة من الجند تحت تصرف محمد علي، وأجاز له أن يفعل كما شا.

وقد امتاز مسلك محمد علي في هذه الحادثة بكل ما يروى عن الفاتحين المظفرين والقواد الموفقين من الهمة والمضاء في أول ما يقع لهم من الحوادث. كان مسلكه جريئاً غريباً مملوءاً بالدهاء، كما كان عنواناً بيّناً ومثالاً جلياً لما كان عليه الحكم التركي حينئذ في بلاد الروملي: ذلك الحكم الذي حول جنة ضاحكة من أنضر جنات الأرض إلى فلاة موحشة للثعالب والذئاب، والذي أطلق يد الخراب في تلك المدائن العامرة الزهراء التي كانت قرة عين هدريان[6] ومراد الأول حتى نبت العشب في شوارعها الجميلة وحتى نسى الخلف ما شيد السلف على ضفاف البسفور من القصور الباذخة، والذي جعل الانتقام واللصوصية أحب الأعمال وأشرف المهن لدى أعقاب أولئك الترافيين الذين كانت روما تفتخر بشجاعتهم، والذين كافحوا تحت قيادة بليسر بوس[7] وفوكاس[8] عن الإمبراطورية العظيمة في إبان مجدها الراحل، وعزها الآفل، والذين أظهروا العجب من الوفاء والولاء بالتفافهم حول أواخر من قبض على صولجان قسطنين من أولئك الأمراء الضعاف العاجزين كأمثال لبو الأرمني وميخائيل التمتام وزو الفاجر ورومانوس الشرير.[9]

---

[6] أحد الأباطرة الرومانيين (117– 138م) كان مشرعاً مشهوراً وإدارياً بارعاً.

[7] أكبر قواد الإمبراطور جوستيان عاش في القرن السادس وانتصر على الفرس والغندال والقوط.

[8] أحد أباطرة الرومان حكم في بداية القرن السابع وكان طاغية جباراً خلعه عن عرش المملكة هرقل بعد كفاح شديد ثم قتله ومثل به في سنة 610.

[9] كل هؤلاء من أباطرة الرومان الذين تولوا الحكم في أواخر أيام تلك الإمبراطورية العظيمة ومنهم يضرب المثل في الضعف وسوء الإدارة.

لم تكن المهمة التي تطوع لها محمد علي بالأمر الهين المأمون إذ لو كان العصاة قد شعروا بأيسر حركة من حركاته لأعدوا عدهم فتربصوا له وراء الأشجار والأحجار، واصطادوا كل فرد من أفراد جماعته الصغيرة ببنادقهم الصدئة الطويلة. وهب أنهم أخفقوا في ذلك فلقد كان من أسهل الأمور على زعمائهم وقادهم أن يبادروا إلى الفرار قبل قدومه فيختبئوا حيث لا يعرف مكامنهم سواهم. وعندئذٍ كان محمد علي لا يجد أمامه غير نفر قليل من الشيوخ والعجائز يئنون في منازلهم المهجورة وقد تركوا هنالك عمداً لتضليله وإخبار أهلهم بأنبائه. فلم يكن لينفعه في مثل هذا الموقف غير الحذر والكتمان وهما من الصفات التي قلما نتفق مع الشجاعة والمضاء والإقدام ولكنه قد حاز هذه الخصال جميعاً.

ظهر محمد علي بغتة في إحدى القرى العاصية فدخل المسجد وتشاغل بالصلاة، وفي أثناء ذلك كان قد أرسل في طلب أربعة من زعماء القرية لمخاطبتهم في بعض الشؤون المعتادة، وإذ كانوا لا يرتابون في الأمر حضروا على الفور، فقبض عليهم في الحال وأشخصهم إلى قوله مكبلين بالسلاسل، ثم أخرس أهل القرية وأسكتهم عن الصياح واللجب، مهدداً إياهم بإعدام رهائنه إذا هم حاولوا التعرُّض له بحال من الأحوال.

على أثر ذلك دفع الخراج فسرّ الحاكم من هذا الجابي الموفق ورقاه إلى رتبة ضابط في حرسه ولم يمضِ إلا قليل حتى توفى قائد هذا الحرس فخلفه الضابط، وأمر الحاكم بتزويج محمد علي من أرملة القائد وكانت

إحدى قريباته. وقد صارت هذه السيدة أُم الأسرة الحاكمة الآن في مصر.

والظاهر أن محمد علي كان في أول عهده بالحياة الزوجية صارفاً جل اهتمامه إلى التجارة، وإن كان لا يزال محتفظاً بمركزه في قصر الحاكم. ويقال أنه كان يتجر في نوع من الدخان الخشن المشهور به سلانيك. وكان أصحاب هذه التجارة يمارسون فيها كثيراً من ضروب الغش والاحتيال أهمها خلط الدخان بروث الخيل وحتات لحاء بعض الأشجار في سنة **1798**، لما شاهد الباب العالي من تقدم الفرنسيين في مصر ما أزعجه، صمم على محاربتهم وإخراجهم من وادي النيل بحد السيف. فكان القبطان باشا ينتظر احتشاد المجندين في طرق مارموريس، وكانت مدينة فوله قد دعيت إلى تقديم قسطها من الأجناد. ففي تلك اللحظة كان مركز التحول في حظ محمد علي وفي تلك اللحظة كان ابتداء صعوده في مطالع السعود. وذلك أن الحاكم، لحرصه على مرضاة ولاة الأمور في الأستانة، قدم للجيش ثلاثمائة رجل كاملي السلاح والعدة. وأمَّر عليهم ابنه وكان شاباً يدعي على أغا وجعل محمد علي نائباً له ومشيراً. بيد أن علي أغا لم ينشب أن تولاه الضجر من رحلته، لما كابده من وغثاء السفر في البحر ومن ضروب الحرمان في بوقير[10] فجعل

[10] جرت في هذا المكان موقعة بين الأتراك والفرنسيين أسفرت عن انهزام الفريق الأول وكان ذلك في سنة **1799**م وفي هذه الموقعة أشرف محمد علي على الغرق لولا أن قبض الله له السير سدني سمث فانتشله من الماء بيده وأنزله في سفينته.

**يحن إلى وطنه ثم ترك الجيش وغادر جنوده تحت إمرة محمد علي الذي رقى نفسه، كما كانت العادة يومئذٍ، إلى رتبة بمباشي .**

**سلك محمد علي في هذه الحرب مسلك الشجاع المقدام؛ ويقال أنه أظهر كثيراً من الحكمة وأصالة الرأي وفضيلة الاحترام لرؤسائه، وهي صفات نادرة بين سائر الناس ولا سيما بين غوغاء الباشبزق الذين كانوا يؤلفون الجيش التركي في تلك الأيام. وكان أول ما أظهر نفسه في واقعة الرحمانية بانتصاره على القائد الفرنسي "لاجرانج" وكان القبطان باشا قد انتدبه لقيادة هجمة ليلية على حصن يحتله الفرنسيون، فلولا مسارعتهم إلى إخلائه لتورطوا في الفخ الذي كان محمد علي قد نصبه لهم بخطته الجريئة الختالة. وبينما كان ملحقاً مع فرقته بجزء من الجيش البريطاني أظهر من فرط الشجاعة وحسن السيرة ما أطلق لسان القائد العام بالثناء عليه والإعجاب به.**

**وقد أسفرت الحملة عن نجاح تام فإن القائد الباسل كليبر كان قد قتل غيلة، فلما خلفه القائد مينو أضاع بعجزه كل ما أحرزه نابليون بانتصاراته في مصر. وكذلك أخرج الفرنسيون من البلاد بأسرها، وقضى على شطر من تلك الخطة العظيمة التي وضعها بونابرت بالاتفاق مع سلطان ميسور للقضاء على سلطة الانجليز في الهند.[11]**

[11] كان بونابرت قد تآمر مع نيو صاحب آخر سلاطين ميسور (**1749– 1799**م) على أن يثور هذا في وجه الانجليز متى وطأ نابليون أرض مصر وكان في ميسور جيش فرنسي يشد أزر أميرها ولكن الإنجليز تمكنوا من التغلب على الأمير الهندي فتمزقت جموعه وقتل وفشلت المآمرة.

عند ختام هذه الحرب الجمة الحوادث كان محمد علي قد أرقى إلى رتبة أمير لواء، وكان أمير البحر الأعظم قد أثنى عليه لدى خسرو باشا والي مصر، وأوصى به خيراً، فاستقبله هذا أحسن استقبال. بيد أن الوقت كان قد حان لبلوغ محمد علي ذلك المركز الذي جعله فوق رعاية الرجال أو دونها ولا غرو فالذي يطمح إلى المعالي خليق أن يسير في طلبها وحده. وكان سخط الجنود الأتراك واستياؤهم من تأخير مرتباتهم وجنوحهم إلى التمرد بدافع طباعهم، كل هذا قد أفسح ميداناً واسعاً لذوي المطامع الجامحة فصمم أمير اللواء على الإلقاء بنفسه في حومة هذا الميدان وقد فعل ذلك والفرصة له متهيئة وأسباب النجاح مواتية. فإنه كان كسائر القواد المظفرين محبوباً بين عساكره، قد اكتسب ولاءهم وإخلاصهم بأخلاقه الخشنة الساذجة وفكاهاته الحاضرة وشجاعته النادرة. وكانوا يعدونه حامياً لحقوقهم من عسف القواد الذين كانوا يختلسون مرتباتهم ومأموري التعيينات الذين كانوا يبيعون جراياتهم. وكانوا يختارونه مدافعاً عنهم ولساناً لهم في جميع المواقف والمواطن، ويرون فيه الوسيط الوحيد بينهم وبين ولاة الأمور. وكان يحرص أبداً على التظاهر بالاهتمام بصلاح شئونهم وحسن حالهم؛ حتى تمكن بهذه الوسائل أن يجعل لشخصه نفوذاً عظيماً ومكانة رفيعة. ولا بدع فإن ذهنه الثاقب– ذلك الذي كان لكل ما وافق مصلحته شديد التنبه عجيب الذكاء– قد أبصر بلمحة واحدة عظيم الفائدة التي هو جدير أن يجنبها من ولاء الجيش ومحبته في تلك الأزمان المضطربة العصيبة فغير عجيب أن تكون تصرفاته قد أزعجت خسرو باشا أشد الإزعاج حتى اندفع هذا إلى

ارتكاب هفوة عظيمة شأن أكثر الذين يتولاهم الرعب ويأخذ منهم الوجل، وذلك أنه أرسل إلى القائد المحبوب يتوعده ويهدده، فلم ينشب هذا الوعيد أن أطلق الثورة من عقالها، إذ أعلن الجنود عزمهم على حماية محمد علي من غضب الباشا، وما هي إلا هنيهة حتى انقلب مسلكهم من موقف الدفاع إلى موقف الاعتداء. وبعد كفاح قصير نزعت أزمة الحكم من خسرو باشا ومن خلفه خورشيد وفي أول ابريل سنة **1806** صدر الفرمان الهمايوني بتنصيب محمد علي والياً على مصر بعد أن كان قد خلع نائبي السلطان على وادي النيل مرتين. وكان عمره يومئذ سبعة وثلاثين عاماً .

وقر القرار على أن تكون حفلة التولية مصحوبة بأعظم مظاهر الأبهة؛ فحضر من القسطنطينية سبعون من التتر يحملون شارات الملك وشعارات الإمارة إلى أكبر أمير في الدولة. فساروا يتقدمون كبير حجاب السلطان الذي كان يحمل الفرمان الهمايوني مع ما هو معتاد من الهدايا وخلعة الشرف؛ غير أن الباب العالي شدد الأوامر على الوالي الجديد بأن لا يجمع شيئاً من الإعانات ولا أن يفرض على الأهلين ضرائب غير عادية.

وأن في هذا الأمر لشاهداً طريفاً من شواهد الاستنتاج، فإن محمد علي كان قد قدَّم رشوة كبيرة لاستصدار قرار رسمي من السلطان بتوليته. وكان يتظاهر في أثناء ذلك بعدم الاكتراث وقلة الاهتمام سياسة منه ودهاء ولبث شهرين ممتنعاً عن استعمال السلطة العليا التي قدَّمها إليه

كبار المشايخ. بيد أنه كان في الواقع الآمر الناهي والسيد المطاع؛ ولا غرو فقد اختاره الجيش بإجماع الآراء؛ وما كان السلطان بكل ما أوتي من حول وطول ليستطيع خلعه.

كانت حالة الدولة العثمانية في ذلك العهد من البؤس والشقاء بحيث يعجز القلم عن تصويرها والعقل عن تصورها، إذ كانت في إبان التحول من طور إلى طور، فدعمها الاضطراب والارتباط والإبهام، فالنظام القديم يتلاشى في كل مكان والنظام الجديد لم يخرج بعد إلى الوجود. وكانت الإصلاحات الواسعة التي أقرها محمود الثاني كأضغاث الأحلام، فالألقاب الضخمة والمراسم الفخمة كانت لا تزال باقية: دليلاً على أن وارث يلدرم[12] وسليمان القانوني لا ينفك الحاكم المطلق لذلك الملك الكبير الذي ورثه عن أسلافه، وأن كبار البشوات أن هم إلا أتباعه وعماله. بيد أنه لم يكن في الواقع إلا ألعوبة وخيالاً يرهقه بين جدران قصره الانكشارية ورجال الدين، ويخونه وزراؤه، ويتمرد عليه جنوده. وما كان مثل مصطفى الرابع في عرشه القلق إلا كمثل أعقاب أرنجزيب[13] إذ كان راجات بنارس ونوابات أوده وبنغالة يستخفون بصولة الضعاف العاجزين من أخلاف المغول الأعظم في دهلي فينظرون إليهم بنوع من الاحترام الهازئ والاحتقار الصادق. بل لقد كان آل

[12] كلمة تركية معناها الصاعقة وكانت تطلق على بايزيد الأول إشارة إلى شدة بأسه وبطشه.

[13] مملكة المغول الأعظم أسسها في الهند جلجيرخان سنة **1206– 1227**م ثم سقطت وقامت ثانية على يد غرلين سنة **1370– 1407**م ثم تدهورت ونهضت مرة أخرى في أيام أهور أحد أحلاف غرلين سنة **1505– 1530**م وبلغت هذه المملكة أقصى عزها ومجدها في عهد أرنجزيب سنة **1659– 1707**م وبعد انقضاء مدته أخذت في التدهور السريع.

تيمور لنك أثناء تلك الفوضى العميمة والاضطراب المتفشي في بلاد الهند أحسن حالاً وأثبت قدماً من آل عثمان في أوائل القرن الحالي.

وكان اليونان لا يزالون شاهرين على الحكومة سيف العصيان وإن كان زعماؤهم وقادتهم يتبؤون في القسطنطينية أرفع المراتب ويتسنمون أشرف الدرجات. وكانوا هم القابضون على أزمة التجارة بأسرها والحائزون لموارد الثروة بأجمعها، كما كانوا هم المحرزون لكل ما ينفع هنالك من علم وذكاء ومعرفة. ولم يكن في استطاعة أحد الأتراك، مهما عظم سلطانه، أن يقاوم وهو آمن على نفسه، دسائس الفنار ومكايده. والواقع أن بطريق اليونان كان أبلغ نفوذاً وأشد صولة من شيخ الإسلام نفسه. وكانت ولايات الدانوب الغنية في حوزة جماعة من اليونان، كما كانت القيادة في الشئوون العسكرية موكولة إلى طائفة منهم أو من المنافقين المتظاهرين بالإسلام ممن لا يوثق بعهدهم ولا يؤمن بقولهم وكثيراً ما كان هؤلاء ينفثون الغش والخيانة في آذان قواد الجيش وأمراء الأسطول. وكانت بلاد الجزائر وتونس، تلك الأقطار الزاهرة التي افتتحها بربرسه، قد أصبحت في شبه استقلال. وجملة القول أن علاقة الباشوات الكبار بالسلطان كانت أشبه بعلاقة الأقوياء من حكام الإقطاعات بالضعاف من أصحاب التيجان في القرون الوسطى.

وكان الباشوات في بعض الأماكن– كما في يانينا وبغداد– يظهرون بمظهر الأمراء المستقلين، فيستقبلون السفراء من الدول الأجنبية ويجاهرون بعصيان أوامر السلطان. وفي بوخارست وياسي كان الحكام

كسنادهم عبارة عن ألاعيب وخيالات. وفي دمشق وعكا استقل بالأمر أحمد الجزار وكان جندياً بسيطاً من أهل البوسنة قاسي القلب عظيم الدهاء فكان يحمل على رعيته المظلومة من فادح الأعباء ما لا يطاق. ولم يكن للباب العالي إلا سلطة اسمية في كردستان حيث كانت القبائل الكثيرة بقيادة زعمائها البواسل الشجعان لا تزال في حروب متواصلة ومنازعات متلاحقة، وهم في ذلك محتفظون بحريتهم في جبالهم الشاهقة ومعاقلهم المنيعة. أما في بلاد العرب فإن الوهابيين– أعداء كل من السنيين والشيعة– كانوا قد استقلوا بالأمر وانفردوا بالسلطة. وكان زعماء لبنان يتنازعون الأمر فيما بينهم بلا وازع ولا رادع. وكان المسيحيون في البوسنة قد شهروا السيف وثاروا في وجه الذين كانوا يسومونهم ما لا يحتمل من المظالم. وكان الألبانيون أولئك الذي لم تتمكن الحكومة قط من إخضاعهم لأمرها كل الإخضاع لا يزالون يعيثون في البلاد سطواً ومشاغبة وفساداً أو يؤجِّرون أيدهم السفاحة لمن يدفع أرفع الأثمان. وكان الصربيون قد أعلنوا محالفتهم لروسيا، ووالي ويدين قد شق على السلطان عصا الطاعة، وانحدرت على كرماتيا جموع كثيفة من (الزبك) تجتاح تلك الولاية الجميلة. وكانت العصابات اليونانية تخرج من اتوس واوليمبس فتنتشر في الطرق وتعمل السلب والنهب في المدائن والقرى. وكان الحكام الأتراك في المورة وجزائر الأرخبيل لا يأمنون على أنفسهم إلا بين جدران قلاعهم. وفي جزيرة "شيو" كان التركي لا يخرج إلى الشارع إلا ويصيبه بعض المسبة والأذى. وكانت سفن القراصنة تبحر من جزيرتي ساموس وكوس فتمخر في بحر إيجة آمنة مطمئنة، كما

كانت الحراقات اليونانية تهجم على مراسي الأسطول التركي فتحرق أحسن بوارجه. وكان قليل من الباشاوات الأتراك يبسطون نفوذهم على كبار المدن القريبة من عاصمة السلطنة، أما إذا ابتعد المرء عن أسوار أزمير أو بروسا ولو مسافة ميل واحد فإنه يصبح في خطر من اختطافه إلى الجبال واعتقاله هنالك حتى يفادى بالمال. ولقد كان من أيسر الأمور على أشقى المجرمين وأفجر بالعصاة أن يبتاع العفو عن إجرامه والصفح عن عصيانه مع خلع الشرف والزلفى برشوة يقدمها إلى الفنار. وخلاصة القول أنه لم يكن هنالك آداب عمومية ولا عاطفة وطنية ولا مراعاة للعدل ولا مقياس يميز الحق من الباطل.

وكان أكبر وزراء السلطان يذبح بعضهم بعضاً كلما أصابوا إلى ذلك فرصة. ولقد بلغ برفدار باشا صاحب رشتاق، بعد رشو الانكشارية ورجال الدين، من القوة والنفوذ بحيث تمكن من قتل أحد السلاطين وخلع الثاني وتنصيب نفسه صدراً أعظم للثالث. بيد أنه، على ما كان يتصف به من سداد الرأي ومضاء العزيمة، لم يكد يشرع في القيام بأيسر ضروب الإصلاح وأهونها حتى أطاحته عن منصبه تلك الأيدي التي رفعته إليه، ثم حوصر في القصر فأشعل كمية من البارود فرّقت بين روحه وجسده.

والظاهر أن الدول الأوروبية كانت تحرص على الاستفادة من اختلال الأحوال في تركيا؛ فإن قوة بريطانيا بقيادة القائد "أوزوالد" احتلت ثلاثة من الجزر الايونية، وسار القائد فريزر على رأس حملة عدائية

إلى مصر فانطلق يجوب عرض البحر مهدداً، بين صقلية ومارابوت، حتى فقد معظم نقالاته وجنوده، وبلغ رشيد من أتباعه القائدان "واشوب" "وميد" فلوثا العلم البريطاني هنالك بالهزامهما شر هزيمة وضرب "دكورث" "وسمث" قلاع الدردنيل بالمدافع؛ فأجاب الأتراك بقنابل من حجر الجرانيت زنة الواحدة 800 رطل فسقطت في البحر من غير أن تلحق بالأسطول أدنى ضرر. واشترك الروس مع الانجليز في هذه الحرب، فأرسلوا أمير البحر سنيافن إلى بحر مرمرة واحتل القائد ميشلسون إقليم بساريا؛ ثم انقض على البلاد بالسيف والنار متقدماً نحو الدانوب.

وما كان الباب العالي ليجد شيئاً من الراحة والسكينة أثناء الفترات القصيرة التي كانت تتخلل هذه الحروب؛ فإن تاريخ الدولة في ذلك العهد مفعم بما كانت تقاسيه من ضروب الإذلال المر والإهانات الجارحة.

فكان نابليون لا يزال يدس الدسائس مع والي بغداد ويانينا الخارجين على السلطان؛ وكان السفير الفرنسي سبستياني والسفير الروسي اتالنسكي لا يزالان في أشد النزاع كلاهما مع الآخر ومع سائر السفراء: والباب العالي إزاء كل ذلك عاجز الحيلة قصير الباع مضطرب الحال مختل الأمر حتى لقد تمثل في الأذهان أن أركان الدولة على وشك التداعي وبنيالها على شفا الالهيار.

بيد أن الفوضى والشقاء والتدهور لم تكن قد بلغت من الشدة في قطر من أقطار الدولة العثمانية مبلغها على ضفاف النيل. فمنذ انتصرت

جموع قمبيز على جيوش "ابسامتيك" لم يتربع على عرش الكنانة أمير مصري، حتى كأنما حقت على ذلك الشعب كلمة النبي حزقيال حيث يقول "لن يجلس على عرش مصر أمير مصري" وكذلك لبث الفرس واليونان يجتاحون سهولة الخصيبة وينشرون الخراب في ربوعها العامرة. ثم جاءت فترة طويلة كلها حروب داخلية وفتن وثورات؛ وأتى الرومان بعد ذلك يتممون ما بدأ الفرس واليونان فبانت تلك البلاد الأسيفة فريسة السلف والنهب وصارت ترهن وتباع وتشترى وأصبح حكامها لا يأمنون على مراكزهم إلاّ بدفع جزية لولاة الأمور في رومة من أعيان فاسقين وفرسان جشعين؛ وما كانوا ليحصلوا على تيجانهم الشائكة إلا من سبيل الخيانة والفسق والقتل. وقد تركت حوادث ذلك العصر المظلم وصمة باقية وعاراً لازماً حتى على أسماء "قصير" و"بومبي" و"كاتو ."

وفي سنة **642** افتتح العرب مصر بقيادة عمرو بن العاص أحد عمال الخليفة عمر. ولم يمض إلا قليل حتى تفشى في البلاد وباء أباد ثلث سكانها ثم نزل بها قحط بلغ من الفظاعة والشدة مبلغاً أفقد الناس صوابهم حتى جعلوا يلتهمون جثث المجرمين وجيف الموتى. وكانت أول غارة للترك على مصر في سنة **1067**، ولكن قائدهم أبو علي حسن نصر الدولة قبل الانسحاب بجيشه في نظير مبلغ من المال ترك خزينة الخليفة الإسلامي خالية الوفاض[14] وأتت بعد ذلك عصور شدة وبلاء، ودهور محنة وبأساء، لم يشرق السعد في خلالها على مصر إلا أثناء حكم صلاح الدين ذلك البطل الكريم والفارس المغوار، خصيم قلب الأسد. ولكن

[14] وقعت هذه الحوادث في عهد الخليفة الفاطمي المستنصر بالله (**1035– 1094**م).

عظماء الرجال عديمو الخلف؛ لذلك لم يكن بين أعقاب صلاح الدين من هو جدير باسمه خليق بنسبه. وفي سنة **1250** خلع آخر ذريته الملك الصالح وقتل بأيدي حرسه.

أولئك الحرس هم المماليك الذين طار ذكرهم في الخافقين وطبق حميتهم المشرقين. وكانوا جماعة من الجنود المرتزقة استخدمهم السلطان بادئ بدء لحماية الثغور وحراسة شخصه، وذلك لأن الوطنيين من سكان مصر كانوا لا يصلحون لحمل السلاح لطول ما تقادم عليهم من عصور الاستبداد التي أورثتهم الجبن والكذب والعجز والمذلة.

وكان منشأ هؤلاء المماليك– الذين ذكروا لأول مرة في الحرب الصليبية الثالثة– في بلاد القوقار، وكانوا يمتازون بشعورهم الشقراء وكان السبب في قدومهم إلى مصر غزوة التتر في سنة **1227**. وذلك أن أتباع جنكيز خان وأتباع حفيديه "باطو" و"هولاكو" لما انقضوا على البلاد يوسعون أهلها قتلاً وتذبيحاً حتى سئموا وكلوا عمدوا إلى بيع أسراهم، فملؤوا أسواق آسيا بالجموع الغفيرة منهم، فاشترى الأيوبيون من هؤلاء الأسرى نحو اثني عشر ألف مملوك.

وظل الأيوبيون يحافظون على هذا الحرس الغريب التأليف ويضاعفون عدده بنفس الوسيلة التي اتبعوها في إنشائه. فكان المماليك بأسرهم عبيداً أرقاء، يشترون من موطنهم، ويجلبون إلى مصر من غير أن يكون لهم فيها أدنى صلة يمتون بها أو قرابة يحنون إليها. وكانوا يجلبون في العادة من بلاد الشركس، حيث تجد الناس إلى يومنا هذا لا يتذممون من

بيع أفلاذ أكبادهم وكان المماليك أنفسهم يتخذون من معرتهم مفخرة ومن سبتهم منقبة، إذ كان من المقرر بينهم أن لا يترقي أحدهم إلى رتبة البيكوية ما لم يكن قد بيع واشترى. وقد ظلوا يحكمون مصر نحو **55** عاماً فلم يترك أحدهم فيها ذرية باقية، لأن ذريتهم كانت تفنى على بكرة أبيها في الجيل الأول أو الثاني.

فلما أصبح هؤلاء المماليك أسياد القطر وحكامه جعلوا يُنصِّبون من أنفسهم زعماء على جماعتهم كيفما شاءت لهم أهواؤهم. وكانوا يولون الحكام ويخلعونهم كلما أرادوا، وكثيراً ما كان يتفق قيام اثنى عشر زعيماً في وقت واحد يتزاحمون على السلطة العليا. ولبث الأمر كذلك حتى افتتح البلاد سليم الأول في سنة **1517** فقضى على هذه المنازعات قضاءً مؤقتاً؛ وكان المماليك قد نهضوا نهضة الشجعان فاجتمعوا تحت لواء طومان باي واعترفوا له بالسيادة بيد أنه ما كان شيء ليستطيع مقاومة زحف الأتراك وصد تيارهم الجارف؛ فانهزم المماليك ووقعت في صفوفهم مذبحة ذريعة قتل فيها قائدهم.

من ذلك العهد انتقلت السلطة الاسمية من أيدي المماليك. ولكن سليم لم يحاول أن يقضي عليهم قضاءً تاماً؛ وإنما اكتفى بتغيير شكل الحكومة وإصدار قرار أعلن فيه أن مصر أصبحت جمهورية تابعة للسلطنة العثمانية، يدير شئونها أربعة وعشرون سنجقاً من المماليك (حكاماً للمديريات)، ويرأس هذه الهيئة وال يعين من قبل الباب العالي، ويبقى في القطر جيش احتلال دائم مؤلف من جنود البحرية والانكشارية. غير أن

المماليك تمكنوا، بما جمعوا من الثروة بكل وسائل الاضطهاد، من إفساد دخيلة ذلك الجيش القوي الذي كانت مهمته قمع طاغيهم وردع غاويهم؛ فلم ينشب أن اضمحل شأنه وأصبح عبارة عن لفيف من الرعاع والغوغاء بلا أسلحة ولا ضباط، يستشعرون للمماليك من الخوف والرهبة ما يستشعره أوضع المصريين وأحقرهم. ولن تجد في الأقاصيص المأثورة عن جيوش الأواخر من آل ستيوارت[15] وعن الجيوش الروسية منذ نصف قرن ما يقارب الفساد الذي بثه المماليك في جيش الاحتلال التركي؛ حتى لقد جاء وقت كان الباب العالي يدفع فيه الأعطيات لجيش عدته تسعون ألفاً ولكن الموجود بالفعل كان لا يتجاوز ثمانية عشر ألفاً، كلهم سيء الغذاء رث الملبس يكاد يون عديم السلاح والعدة .

والظاهر أن الباعث الذي دعا سليم إلى أتباع تلك السياسة الخرقاء خوفه لئلا يصبح الوالي على مثل تلك الإمارة الغنية مفرط القوة منيع الجانب. لذلك عمد إلى تقييد سلطته وتضييقها، فسرعان ما اضمحلت تلك السلطة وتلاشت كلية، حتى لقد تمكن المدعو إبراهيم بك[16] حوالي سنة **1746** من القبض على أزمة الحكم في مصر وكان قد توصل بحسن سياسيته إلى تعيين ثمانية من أهل بيته في ثمانية من مناصب الأربعة وعشرين سنجقاً .

---

[15] هي أسرة حكمت إنجلترة من **1603– 1714**م.

[16] هو رئيس حزب الكردغيلة من المماليك إذ ذاك. وكان علي بك الكبير الذي استقل بمصر سنة **1769** أحد مماليكه.

ذلك كان الأشراف من زعماء الأعراب– أولئك الذين كانوا يتتبعون أنسابهم إلى النبعة المحمدية من غير أن يفقدوا في سلسلة النسب حلقة واحدة– يجدون أنفسهم خاضعين لسلطان أي جندي سعيد الحظ طموح إلى المعالي لا يبالي بالعواقب ولا يرهب العقبات، ولربما أمسكوا عن الولاء لأولئك الغرباء المتوحشين وتدفقوا بجموعهم المسلحة على المزارع والمروج فاكتسحوا ما بها من ماشية ومحصول.

في ذلك العهد كانت أخلاق المماليك قد بلغت من دركات الانحطاط والتدهور أسفل ما يتصوره العقل. كانوا يذبحون الولاة المعينين من قِبَل السلطان في رائعة النهار كما كانوا يتذابحون فيما بين أنفسهم ويتقاتلون متذرعين إلى بغيتهم بالسم وهو سلاحهم المحبوب. وكانت حياة الفرد منهم، كما قال المسيو فولني[17]، سلسلة من جرائم القتل، والغدر، والمؤامرات والدسائس. قد انقطعت بينهم وبين بعضهم بعضاً، كما انقطعت بينهم وبين سائر الناس، أسباب المحبة والعطف وصلات القرابة والرحم؛ فراحوا يتورطون في حمأة الرذيلة ويدمون معاقرة الخمر، ويسترسلون في جماح الفسق، ويرتكبون من الموبقات والآثام كل ما استنزل غضب السماء على قوم لوط. وكان النظام قد انتفى من صفوفهم، والطاعة قد ذهبت من قلوبهم، ولم يبق في أنفسهم شيء من تلك الروح الحربية الجريئة التي كانت أغلب الخصال عليهم، وأظهر الصفات فيهم. فلم يعودوا أولئك الفرسان الشجعان، والأبطال المناجيد،

---

[17] هو أحد المستشرقين الفرنسيين الذين حضروا إلى مصر قبل الحملة الفرنسية وكتب عن حالة مصر في ذلك العهد وكتابه عمدة في تاريخ هذه الفترة.

الذين كانوا بحملاتهم العنيفة يلقون الرعب والدهش في قلوب نخبة الجيوش الأوروبية، والذين اعترف لهم بالفضل قائد الفرنسيس نابليون على تشيعه لأمته وتعصبه لشجاعة أبناء جلدته؛ فقال على الرغم منه أنهم أحسن فرسان في العالم. وكانت بيوت البيكوات من المماليك قد أصبحت مواخير من القذارة والدعارة، بعد أن كانت في الماضي مثالاً للنزاهة والتقشف وعنواناً للبساطة والتزهد. وكنت تشاهد الجماهير من "العوالم والغوازي" محتشدة حول خيامهم يغنين ويرقصن في مساء الليلة التي سيشهد صبحها احتدام القتال ومعترك الجيشين. وكان حكام المديريات منهم يقضون معظم أوقاتهم في القاهرة تخنثاً وترفها فلا يغادرون العاصمة إلا للسلب والظلم وكان فيهم من التغطرس والكبرياء بقدر ما فيهم من القسوة والجشع، حتى لقد كانوا يعدون المشي على الأقدام سبة وعاراً. وكانوا يتفاخرون كل التفاخر ويغالون كل المغالاة بالخيول الفارهة ويتخذون لها العدة الرائعة والحلية السنية ولا يسمحون لأهل البلاد بأن يركبوا غير البغال والحمير.

وكان لباسهم مستغرب الدوق ثقيلاً؛ إذ كنت ترى الواحد منهم ملففاً مزملاً في الثياب الفاخرة، مدججاً من ذؤابة رأسه إلى أخمص قدمه بالأسلحة المزخرفة؛ حتى لقد كانت كسوة البك تبلغ من الثمن ما لا يقل عن **600** جنيه، وهو مبلغ عظيم إذ ذكرنا أن قيمة الجنيه كانت يومئذٍ ثلاثة أمثال قيمته اليوم؛ وأن النقود في مصر أندر وجوداً وأرفع قيمة منها في انجلترة. وكان ثمن الواحد من جيادهم يبلغ **300** جنيه؛ وكانوا يعنون بانتقائها من أكرم الجياد العربية وأعظمها نجابة وعتقاً وكان من شأن

المماليك حتى الذين لم يبلغوا منهم رتبة البيكوية أن يتخذوا لخيولهم رُكباً مذهبة واحلاساً مزركشة بالذهب وسروجاً ولجماً مصفحة بكريم المعادن وكان أكثرهم يتظاهر باحتقار الزواج؛ ولكن جواريهم ومحظياتهم كن يرفلن في أذيال الترف والنعيم، ويتبرجن في روائع الحلي والزينة. وكانوا يشترون بالأثمان الفادحة أجمل الجواري الشركسيات من أسواق الاستانة وأزمير فيحبسونهن على ملاذهم وملاهيهم مزينات بأفخر مصنوعات ليون وجنوه. وكان يعلق بشعور أولئك الغواني أعباء ثقيلة من الجواهر والدنانير.

أما الشعب فقد كان يرزح تحت كلاكل الظلم والاستبعاد. لا يأمن أحد على أملاكه إلا السناجق وحملة الشرع. وليس لأحد حق في الوراثة، بل الحكومة هي المالكة لكل شيء. وكانوا لا يسمحون للفلاح إلا بمسكة الرمق وبلغة العيش، ولا يبيحون له أن يأكل الأرز الذي زرعه ولا القمح الذي أنبته؛ بل كان طعامه الذرة الهندية، التي يصنع منها خبزاً كريه المذاق. فهذا مع قليل من الماء وقليل من البصل والعدس كان غذاؤه الوحيد طول العام. وكان الفلاحون لا يكادون يرتدون من اللباس شيئاً ويسكنون في أكواخ من الطين يعجز القلم عن وصف ما بها من قذارة ورثاثة .

وكان حديث القوم في أسواقهم الخربة، وخاناتهم المتهدمة، لا يدور إلا حول ما حل بالبلاد من الفتن الداخلية، وما يئن تحت أعبائه الأهلون من التعس والشقاء. إذ كانت الأفراد تطرح أرضاً فتجلد أو تقتل بدون

أية محاكمة؛ لا يفلت من ذلك شيخ أو امرأة. وكان الضباط يطوفون الشوارع ليلاً ونهاراً، وبرفقتهم زمرة من الأشقياء يحملون حقائب جلد يضعون فيها ما يجزه أولئك الضباط السفاحون من الرءوس أثناء طوافهم. وكانوا لا يرون من الضروري لتوقيع عقوبة الإعدام قيام الدليل أو شبه الدليل على إجرام المتهم؛ وإنما يكتفون في إثبات إجرامه بما قد يكون في حيازته من الثراء والغنى. فيطلب هذا الثري التعس أمام أحد البيكوات ويؤمر بدفع مبلغ من المال؛ فإذا أبى وأنكر طرح على ظهره، وصب على أخمصي قدميه نحو مائتين أو ثلثمائة سوط. ولا شك أن مثل هذا العقاب كاف لإقعاده عن الحركة عدة أشهر؛ فإذا أصر على عناده، وتمادى في إنكاره قتل بلا شفقة ولا رحمة. لذلك لم ير الأغنياء وسيلة للاحتفاظ بما لديهم من المال إلا بالتظاهر بالفاقة والمتربة. وكان الأسرى الذين يؤخذون في خلال كل مشاحنة أو مشاغبة، يذبحون بوحشية وفظاعة تذيب الصخر. وكان هؤلاء المجرمون يبعثون إلى رؤسائهم بسلات مفعمة برءوس الآدميين وآذانهم، برهاناً ساطعاً على ظفرهم بعضاً على بعض. وكان الرئيس يدفع لهم خمسين قرشاً عن كل رأس أو أذنين. فكان حب المال يغري بعضهم بقتل رفاقه في الصف خلسة طمعاً في ذلك العطاء الشائن. ومما يروي عن الألفي بك وهو من أشهر مشاهير السناجقة، أنه أنفذ خطاطيف من حديد في ذقون بعض الأعراب، وصلبهم صفاً صفاً في جذوع الأشجار. وحدث في دمياط أن طاغية يدعى ديلي محمد تغالى في استنزاف دماء القوم، فلم يرض بما كان يغتصبه منهم بالعذاب التكبيل في الأصفاد والأغلال، حتى أجبر بعض اليهود

على بيع أفلاذ أكبادهم بيع السلع، ثم تقاضى هو ثمنهم بلا خجل ولا عار. ومن ذلك أيضاً أن ماجو بك، الذي كان يقود القوات في دمنهور، قبض على أحد التجار وضرب عليه غرامة فادحة، لم يكفِ لوفائها كل ما لدى هذا التاجر من المال والعقار؛ ومات الرجل في سجنه، فلما حضر أهله وأقاربه لأخذ جثته، أفهموا أن الجثة لم تسلم إليهم، إلا إذا قدم ابن التاجر نفسه إلى السجن مكان والده. وكثيراً ما كانت الأفراد تضرب حتى تلفظ الحياة. وكانت أعلام الدول الأجنبية تحتقر وتهان بدرجة أشنع من التي جرت الخراب على بلاد الجزائر. وكذلك كان الخطر يحدق بالأجانب والنساء في ذهابهم وإيابهم في الشوارع. فمن ذلك أن (المسيو روبير) أحد الفضاء الفرنسيين بترت إحدى جوارحه وهو خارج من بيته لغير ما سبب؛ وأن بنت معتمد السويد السياسي ماتت بطلق ناري في طريقها مع أختها إلى الحمام.

أما حركة التجارة فإنها شلت؛ وكان التجار يضطرون إلى إرسال سلعهم في قوافل عظيمة العدد، حتى أن القافلة التي سار بصحبتها "فولني" بلغ عددها ستة آلاف رجل. على أن هذا العدد ما كان يكفي إذ ذاك لتأمين القافلة غائلة الاعتداء والسطو. وفي ذلك العهد أُهملت تجارة الحرير التي كان لمصر فيها القدح المعلى من غابر الأزمان. وعم الجدب البلاد فتحول أخصب بقاعها إلى فلوات جرداء لا زرع فيها ولا ضرع. وكان مشاهير اللصوص، والخارجين الذين لا تزال أسماؤهم باقية تفزع بها الصبيان كأبي ليلى وإضرابه، يتقلدون مناصب عالية في الجيش وكان قد انتشر في طول البلاد وعرضها عصابات كبيرة من اللصوص تأتي

بالعجائب والمدهشات من ضروب الحذق والمهارة؛ إذ كانت حيلهم تلقى الدهشة حتى في قلوب المطلعين على كتابات "فيدوك"[18]، فكثيراً ما سرقوا خيل الضباط الفرنسيين على مرأى من جنودهم، وكثيراً ما نشلوا سيوفهم من جوانبهم؛ وكانوا يختبئون وسط علف الخيل وأكوام المؤن والذخائر– وفي ذلك خطر من الموت اختناقاً– ثم يدحرجون براميل البارود وعدول الغلال من غير أن يراهم أحد. وكانوا يهدمون ظهور الجدران، فيسرقون أمتعة الجنود بسرعة ومهارة تمكنهم من الإمعان في القرار قبل أن تكشف جنايتهم. أما لصوص النهر فكانوا أبلغ من هؤلاء مكراً وأشد حذقاً، وأدهى حيلة؛ يؤيد ذلك ما رواه (المسيو منجن)، أن إعرابياً ظل يسبح في الماء مدة طويلة وراء قاربه، ثم تسلق جانب القارب على غرة واختطف عمامة النوتي وغاص في الماء قبل أن ينتبه إليه أحد، ثم لم يلبث أن طاف على وجه الماء ثانية على مدى لا تصل إليه طلقة نارية. وقد بلغ من شدة الحال أن المرء كان لا يستطيع الذهاب لقضاء الحاجة وهو آمن مطمئن على نفسه. بيد أن بعض نوادر هؤلاء السراق المكرة لا يلتئم ذكرها مع هذا المقام، وإن كانت تنال إعجاباً عظيماً في الأقاصيص العربية. وكان لهم نقابة منظمة.

وفي خلال هذه الفترة انحطت جميع العلوم والمعارف على اختلافها؛ فكان أوفر البكوات عقلاً يعتقد في العرافة، والتنجيم، والسحر، ويؤمن كل الإيمان بصدق الطيرة والأحلام، ونبوءات الساحرات، هذا إلى أن الكهانة كانت عندهم حرفة رائجة.

[18] هو من مشاهير البوليس السري الفرنساوي في القرن التاسع عشر.

تلك هي الحالة الفظيعة التي أنقذ محمد علي البلاد المصرية من شرورها وأقذائها. حقاً إن الحملة الفرنسية كان لها بعض الأثر في قمع مظالم البيكوات وتقليم أظفارهم، لكن الحال لم تدم طويلاً، إذ على إثر موت القائد كليبر أخذت نار الأحقاد تشتعل بينهم، فظهر ما خفي من عسفهم وقساوتهم وفجرهم وخلاعتهم .

وقد ظل محمد علي خمسة أعوام يتحمل شغب القوم وفتنهم، ويصبر على عبثهم ودسائسهم بجأش رابط، ولكنه رأى بعد ذلك بثاقب نظره، أن سلطانه لا يكون ثابت الدعامة، وأن حياته لا تكون في أمان، إلا بعد القضاء المبرم على نفوذ المماليك في البلاد جملة. ولم يلبث طويلاً حتى أسعده الحظ بسنوح فرصة للإجهاز عليهم؛ فإنه بتحصين ميناء الإسكندرية، كان في قبضة يده كل موارد الثروة في البلاد يشد أزره جيش جرار من الأشداء المدربين؛ يضاف إلى ذلك أن ظفره على القائد "فريزر"[19] الانجليزي رفع من مكانته وأعلى من شأنه في دار الخلافة، فأصبح عظيم الثقة بنفسه. لذلك صحت عزيمته على مناجزة المماليك المتجمعين في الوجه القبلي بتسيير جيش عليهم؛ وبعد مناوشات عدة عقد بين الطرفين هدنة، وسمح للبيكوات بدخول العاصمة. واهتم الوالي مدة بترضيتهم ولكن ذلك كان مستحيلاً؛ فأخذ كلا الفريقين بدس الدسائس ويتآمر بهمة لا تفتر للقضاء على عدوه. ووجد محمد علي أن كل مكايده وحيله لن تفلح أمام عداوة البيكوات المتأصلة.

[19] راجع كتاب تاريخ مصر من الفتح العثماني تأليف عمر الإسكندري وسليم حسن ص 123.

كان مطمح آمال محمد علي إذ ذاك تخليص الأماكن المقدسة من جماعة الوهابيين، غير أنه لم يكن ليجسر على سحب جندي واحد من مصر مع وجود جيش شديد البأس للمماليك في البلاد لم يهزم بعد. وكان على يقين أنهم يتحينون فرصة غيبة الجنود الأتراك من مصر ليشقوا عصا الطاعة على محمد علي ثانية. فكان الأمر موقوفاً على أي الفريقين يكبد أولاً للآخر كيداً ناجحاً، لأن فشل أحدهما يكون مبدأ نجاح الآخر. فبينما كان محمد علي في السويس يلاحظ تجهيز الحملة على بلاد العرب، تسلم رسالة من محمد بك لاظ الكخيا أخبره فيها، أن المماليك عزموا على أن يكمنوا له ويأخذوه على غرة في طريقه إلى القاهرة. لذلك لم يطل مكثه في السويس كما كان عازماً، بل غادرها في غلس الظلام على نجيب سريع دون أن يُعلم أحداً وجهته، ووصل إلى القاهرة في فجر اليوم التالي مع أربعة حراس. وكانت هذه المكيدة وأخرى غيرها كشفت في ذلك الوقت. سبباً في عقده النية على أن يكون هو السابق في القضاء عليهم.

لقد استولى الرعب والوجل على محمد علي أيما استيلاء، فدبر المكائد للقضاء على أعدائه بكل ما أُوتيه من الدهاء والعزيمة، فأصدر الأوامر بالإسراع جهد المستطاع في تجهيز الحملة إلى بلاد العرب، وكان الاحتفال بتنصيب طوسون باشا ثاني أولاد محمد علي قائداً لهذه الحملة مقدمة لسيرها في القريب العاجل؛ فعين لإقامة هذا الاحتفال في قلعة الجبل يوم قريب دعى لحضوره رؤساء الأجناد والمماليك أيضا .

خرج بيكوات المماليك ممتطين جيادهم المطهمة تختال بهم في شوارع القاهرة لآخر مرة في حياتهم؛ وكان ذلك في صبيحة اليوم الأول من شهر مارس سنة **1811**م حينما تشرع الرياح الجنوبية في الهبوب وتشتد لوافح الحر، حتى في باكورة الصباح، فلا يحتمل لهيبها أوربي. وكان لا يزال بين هؤلاء الطائفة فتية أمجاد، فخرج في ذلك اليوم جمعهم المحتشد وفيهم من لا يحجم عن الركض بجواده إلى حيث يعانق الموت المحتم بقلب منشرح، ومن يرى في منازلة القرن ملهى وفي ساحة الوغى ملعباً؛ بل ومن يحمل في صدره فضائل غريزية كالكرم، وحب الضيافة، والصداقة، ومن يذود عن حياض أوليائه، وينقاد بسهولة لكل خاطب وده. نعم لقد كان في ذلك الموكب البهي والجمع المتألق رجال طبعوا على النجدة والشجاعة، والسخاء والسماحة، والصدق والصراحة، مليون بكل فكاهة مليحة ونكتة دقيقة، يحسنون التقليد ويرعون حق الإخاء. تلك الطائفة تفرق شملها واتمكث قتلها في يومي شبراخيت والأهرام[20] وتدنست صفوفها لما اختلط بهم أربعة من الفرنسيين، ولما اندس بينهم إبراهيم بك ذو اللحية البيضاء، الذي لم يشتر بالمال مثلهم. ولكن بالرغم من ذلك، كان عددهم لا يزال يتراوح بين أربعمائة وخمسمائة فارس. وقد خرج من صفوفهم أربعمائة وسبعون فارساً في موكب يشهدون الاحتفال بابن الوالي. وكان شاهين بك أول من خرج منهم على رأس مماليكه؛ ثم قفي أثره المماليك الآخرون، فقابلهم الوالي في

[20] لما علم المماليك بزحف نابليون على القاهرة قابله مراد بك أحد رؤساء المماليك في جيش تبلغ عدته **4000** جندي عند شبراخيت ولكنه هزم فتراجع إلى القاهرة وبعد ذلك سار نابليون بجيشه قاصداً القاهرة. وكان مراد بك قد استعد للقائه عند إمبابة فدارت الدائرة على المماليك وهزمت جموعهم شر هزيمة في **21** يوليه سنة **1798**.

قاعة جلوسه بكل حفاوة وفخامة، فصرفوا الوقت في تناول القهوة والحديث أثناء الاحتفال، وبعد الفراغ من ذلك جاء الإذن بالرحيل فأخذ المماليك يمتطون متون جيادهم ليشتركوا في سير ذلك الموكب الفخم إلى المعسكر.

وكانت العادات المتبعة إذ ذاك تلزم كل فرد باتخاذ مكانه حسب رتبته. فكان في طليعة الموكب فرقة من عساكر الدلاة المشهورين الذين كانت تفخر مصر بشجاعتهم وإقدامهم،وعلى رأسهم أوزون علي؛ ثم تلاهم أغوات الانكشارية فصالح فوج يقود جنده من الألبان بأزيائهم البيضاء. وأتى بعد هؤلاء المماليك، فكانوا وسط عقد الموكب يقودهم سليمان بك البواب المشهور بضخامة الجسم وعظم الخلق وما أوتيه من غريب الحذق وعجيب المهارة في قيادة جواده واستعمال مهنده. ثم جاء على أثر المماليك الرجالة، فالفوارس فأولى الحل والعقد من الملكيين. وعلى هذا الترتيب سار المحتفلون ميممين باب العزب المؤدي إلى ميدان الرميلة. وقد درست اليوم رسوم الطرق المؤدية إلى هذا الميدان وتنكرت معالمها، حتى لو أنه بعث مملوك من قبره لتعذر عليه أن يميز البقعة التي شهدت مصرعه، بيد أن شاهد عيان يوثق به من الذين شاهدوا ذلك اليوم الرهيب يقول أن الطريق كان ممراً ضيقاً متمعجاً منحوتاً في أصل صخرة يكتنفه من الجانبين ببوتات وحصون. ولقد كان من الصعوبة بمكان أن يسير فيه جوادان جنباً لجنب لشدة تعرج منعطفاته وزواياه، هذا إلى أن الطريق نفسه كان حزناً وعراً.

وعلى أثر خروج الدلاة والانكشارية من باب العزب أمر صالح قوج بإيصاد الباب وأبلغ أجناده أمر الوالي بذبح المماليك، فلم يكد الألبانيون يتلقون الأمر، حتى ولوا وجوههم شطر المماليك وأخذوا يتسلقون الصخرة بما وهبوه من خفة ورشاقة كأنهم الظباء، فتبين لبيكوات المماليك في الحال ما كيد لهم من الخيانة، ورأوا أن الهرب أو المقاومة لا يجديان فتيلاً. وقد أظهر لهم حرج مركزهم وخطورته ما انصب عليهم من وابل المقذوفات التي كانت بمثابة إيذان لمن وراءهم من الأجناد؛ وكان هؤلاء قد اتخذوا مراكزهم في البيوتات المجاورة وخلف الجدران فأمطروهم ناراً حامية تساقط تحت وابلها الفرسان والخيل؛ وما كانت تغنيهم شجاعتهم وقتئذٍ شيئاً أمام عدو مختبئ. وقد حاول البيكوات عبثاً أن يولوا الأدبار ويستولوا على القلعة ثانية فيبيعون فيها دماءهم بأثمان عالية، ولكنهم وجدوا السبل مسدودة في وجوههم؛ فلم يستطيعوا أن يقدموا رجلاً أو يؤخروا أخرى. فأينما ولوا وجوههم تلقفتهم سيوف الألبان. ومما زاد الطين بلة أن خيولهم جن جنونها من الصخب وصوت البنادق، فكانت تزل بها أقدامها وتسقط على الأرض في كل ركضة. وقد جعل بعض المماليك يدحرجون أنفسهم على الأرض محاولين أن يتخلصوا من ملابسهم الثقيلة، ولكن العدو كان يصوب عليهم نيرانه، أثناء تقلبهم على الثرى. فخر شاهين بك صريعاً وقد اخترقت جسمه عدة رصاصات أمام أبواب قصر صلاح الدين، وقد مثل بجثته، إذ جرت في الشوارع بحبل موثق حول خناقه. أما سليمان بك ابواب فإنه عمد إلى قصر الوالي والدم يقطر منه وليس عليه من اللباس

إلا فضلة فلاذ بالحريم واستجار به بكلمات لا يزال يكررها كل لائذ وأسير (أنا في عرض الحريم)؛ غير أن استغاثته ذهبت صرخة في واد، وأمر الوالي بقطع رأسه بقسوة فظيعة كان مصدرها الخوف والفزع. ولم ينج من كل جماعة المماليك الذين امتطوا صهوات جيادهم إلى القلعة وهم في ربيع الصحة وعنفوان القوة إلا أمين بك الذي قفز به جواده من ثلمة في أصل الجدار.[21]

ويقال أن محمد علي لم يكد يرى الموكب يتمشى في طريقه الضيق، حتى أخذ القلق يستولى عليه، فكانت حركاته المضطربة تظهر ما بطن من عواطفه ووجدانه. فلما سمع أول طلق ناري ازداد وجله إلى درجة لم يتمالك معها نفسه، وشحب لونه، وارتعدت فرائصه؛ وقد يعزى ذلك إلى خوفه من أن يتهاون في تنفيذ أوامره وتكون عاقبة تلك الموقعة الدومية خرابه وموته؛ أو إلى أنه ندم على ما فرط منه. غير أن منظر الجرحى من الأسارى والجثث المجندلة على الثرى والجماجم المطروحة على الأرض أزالت من فؤاده بلا ريب كل خوف على حياته وقلق على سلامته؛ ومع ذلك ظلت ملامح الاضطراب بادية على وجهه وعواطف الوهل تختلج في فؤاده. وبعد فترة دخل عليه "مندريسي" الجنوي أحد أطبائه في حجرة جلوسه وأقبل عليه وقال، وهو ضاحك الأسارير في موقف لا يجرأ على البشاشة فيه غير أمثاله من الطليان. "مولاي قد قضي الأمر فهذا يوم من أيام سعودك" فأطرق الوالي واجماً، ولم ينبس ببنت

[21] يدعي بعض المؤرخين أن ما حدث لأمين بك خرافة لا أصل لها.

شفة؛ بيد أن سكوته كان فصيحاً ولم يزد على أن فغر فاه المحترق من شدة الوجد طالباً جرعة ماء .

على أثر ذلك أُبيحت منازل المماليك للنهب والسلب، وأخذت منها أسلاب وفيرة، وصدرت الأوامر باستئصال كل ما عسى أن يكون منهم بالمدينة، وأنذر بالعقاب كل من يجرأ على إخفاء مملوك، أو يسهل له سبيل الفرار. ولبث النهب يومين كاملين بلا رادع، وفي اليوم الثالث خرج الوالي في ثياب حفلته، وسار في موكب مهيب يجتاز المدينة ويأمر بحقن الدماء، وسمح لمن نجوا من المذبحة الكبرى بالانعكاف حيث يشاؤن، أو بالبقاء آمنين مطمئنين. ويقال أن عدة من قتل في ذلك اليوم بالقلعة وحدها بلغت أربعمائة وأربعين مملوكاً. وأن سائر من قتل في الأقاليم والمدينة بلغ مجموعهم نحو **1200** قتيل. أما من نجا منهم فقصتهم معروفة. فالذين كانوا في صعيد مصر هاجروا إلى أعالي النيل ثم التجأو إلى حمى ملك شندي، بعد أن أوقع بهم إبراهيم باشا غدراً في إسنا، ولما اقتربت منهم الجيوش المصرية في سنة **1820** غادروا وادي النيل ميممين ناحية الغرب فاجتازوا دارفور ونفذوا خلال الصحراء حتى وصلوا إلى سواحل البحر الأبيض ولم يبلغ طرابلس منهم إلا نحو خمسة عشر مملوكاً أو دون ذلك فذهب بعضهم إلى القسطنطينية حيث ألقى عصا التطواف وقضى أواخر أيامه. وكان قد بقي منهم بقية يسيرة في مصر فالتحقوا بخدمة الوالي حيث ارتقى بعضهم كعثمان بك وغيره إلى درجات رفيعة، حتى لقد عين أفراد منهم حكاماً للمديريات. أما الذين كانوا يستطيعون الاعتماد على أنفسهم في معاشهم فقد رخص لهم بالمقام في القاهرة.

لا نزاع في أن محمد علي قد اقترف بهذا الفعل جريمة شنعاء وأن مسلكه في هذه الحادثة يستعصى على كل من يروم تسويغه وتبريره، بيد أنه لا سبيل إلى إنصافه حق الإنصاف وإلى المعادلة بين مبلغ اللوم ومبلغ الاعتداء إلا إذا راعينا موقف المجرم وأحوال الزمان. لقد كان القضاء على دولة المماليك الأساس اللازم لكل ما يأتي بعد ذلك من ضروب الإصلاح، إذ كان حكمهم ملوثاً بكل رذيلة من رذائل الاستبداد، وبكل ضرب من ضروب القسوة الملازمة لتسلط شعب على شعب، وكان ما يدلى به زعماؤهم من الدعاوى المتناقضة والمزاعم المتضاربة قد جر على البلاد سلسلة من المصائب والنكبات قلما وقع مثلها في تاريخ العالم. وما ذلك بمستنكر على طائفة من الطغاة الفاسقين قد انغمسوا في حمأة الخمول والدعارة، وراحوا يقضون الحياة بين الكأس والطاس، يتعاطون الأفيون؛ ويداعبون الجواري ويستمعون سخافات الماجنين، فإذا انتبهوا من رقدهم وأفاقوا من سكرهم لم يكن ذلك إلا لتلطيخ أيديهم الأثيمة بدماء القتلى ومذابح الأبرياء يضاف إلى ذلك أنه لم يكن هنالك سبيل إلى ابتياع ولائهم والاستيثاق من إخلاصهم ولو أغدق الوالي عليهم موارد القطر بأجمعه. فإنهم كانوا قوماً لا يوثق لهم بعهد ولا يكتسب رضاؤهم بمال.

إن السياسة في بلاد الشرق لعبة خطرة؛ وما كان محمد علي في هذه الحادثة يجاهد لتوطيد ملكه وحسب، بل كان كذلك يجاهد دفاعاً عن حياته وكفاحاً عن حريته. والخوف، كما تعلم، أشد العواطف غلظة وأنماها للقسوة في قلب صاحبه. وقد كان محمد علي يحارب أعداء أقوياء ماكرين وخصوماً ألداء غادرين. جرب معاشرتهم على الوفاق والوئام

فحاولوا الغدر به واغتياله مرتين، ولكنه كان يوفق إلى إحباط مسعاهم حتى استقر في نفسه أنه لا فائدة من مهادنتهم، كما كان يعلم أنه لا قبل له بمعاقبتهم.

وحيثما انعدمت الشرائع راجت أسواق القسوة وصنوف المظالم، إذ لابد من وجود رادع يكف الأقوياء من أولئك الطغام عن الظلم ويرد الطائشين عن العبث. وإذا تأملت في مسلك البيكوات المماليك لما رأيت من بينهم من لا يستحق المحاكمة والإعدام لتعكيره صفو السلام وعبثه بالأمن، لو أنه كان في مجتمع ثابت الدائم قابض على ناصية الحال. وإذا قارنتهم بنبلاء التحالف الوطني[22] الذين زعزعوا أركان حكومة آخر ملوك ڤلوا لرأيتهم أشد خطراً وأكثر عدواناً. حقاً لقد كان لهم من نجابة خيولهم وبهاء حللهم وشدة بأسهم وجمال أسلحتهم ما يغشيهم من رونق الجلال ويعقد على رؤوسهم من هالات المجد نظير ما يتمثل في قلوبنا لأولئك الفرسان البواسل أصحاب روبرت ذي الحملات الصادقات في موقعة ادجهل[23] وأولئك السادة الأروا ع الذين كانوا يضاوون الشمس بأسلحتهم البراقة وهم ملتفون حول هنري نافار في موقعة اڤري[24]. بيد

---

[22] بعد موت شارل السابع ملك فرنسا سنة **1461** تولى الملك ابنه لويس الحادي عشر وكان أول عمل قام به عزل وزراء والده وقواده فانتقم هؤلاء إلى الخارجين من الأشراف وتحالفوا عليه وشنوا الغارة باسم الصالح العام وكان هذا الحلف مكونا من أكابر أمراء البلاد فعزم لويس على القضاء على هؤلاء العصاة مما كان لديه من الجنود المطية، ولما لم يقدر على قهرهم بالسيف اسند في حل عقد هذا الحلف تارة بتخفيف الضرائب وطوراً بإرضاء الأشراف كل على انفراد.

[23] أول موقعة حدثت في حروب انجلترة الداخلية في عهد شارل الأول ظفر فيها أنصار الملك على حزب البرلمان سنة **1642** وكان الأمير روبرت قائد جيش الملك.

[24] موقعة انتصر فيها هنري نافار أو هنري الرابع ملك فرنسا على الكاثوليك من رعاياه وذلك على أثر احتدام الخلاف الديني في تلك البلاد سنة **1589**.

أنهم كانوا في الحقيقة لا يفضلون طغمة من المتوحشين الجهلاء المدججين بالسلاح، دأبهم السلب والنهب، لا يبالون من أي ناحية أو بأي وسيلة. فالويل للباشا أن هادنهم أو عاهدهم والويل كل الويل أن أظهر أنه غلب على أمره. فالباب العالي ينحاز أبداً للجانب القوي. أضف إلى ذلك أن الألبان الذين كانوا طوع بنانه يأتمرون بأمره في قتل من شاء مدة عزه وجاهه، لا يتأخرون طرفة عين إذا فارقه الحظ وهجره الجد يوماً واحداً، أن يؤجروا على ذبحه. وكيف بحال من لا تطيب له لقمة خشية أن يكون السم قد دس له فيها.

فليحكم عليه كما شاء كل من لم يقف قط في حياته وقفة الحائر المتردد بين عزة الاستقامة وفتنة المجد: بين مفارقة الاسم ومواقعة الحين. أما غير هؤلاء فحسبه شفيعاً لديهم علمهم بضعف النفس البشرية إزاء عواصف الطمع والخوف، وكيف تزيغ أشرف الطبائع وأسماها عن محجة الهدى بدافع الخوف وحب السيادة.

فإذا نظرنا إلى تصرف محمد علي بالعين الغربية المحضة كانت مذبحة المماليك جناية شنعاء، وخيانة نكراء، ولكن لا وجه مطلقاً لمقارنتها بمثيلاتها من جرائم الأمراء المسيحيين كنكبة كرستيان الثاني لأمراء السويد[25]، وإنما هي أشبه بالقضاء على الانكشارية الذي حدث في الأستانة بعد ذلك ببضع سنين.

---

[25] كريستيان الثاني حكم الدنمارك والنرويج والسويد في أوائل القرن السادس عشر، أوقع بنحو ثمانين من أشراف مملكته بدعوى الدفاع عن الدين وتعد هذه الفعلة من أفظع المذابح التي رواها التاريخ.

أما إذا نظرنا إلى فعلته بعين مواطنيه وإخوانه المسلمين فإنه يخرج بريء الساحة طاهر الذيل. ولا نبعد عن الحق إذا قلنا أنه منذ عصر "بايزيد" إلى اليوم لم يتول الحكم رجل ذو سلطان وبأس كان يتردد لحظة واحدة في أن يفعل كما فعل محمد علي لو وقف موقفه وأُبتلى بمثل محنته. وغير خاف أن الناس في تلك الأيام كانوا يألفون رؤية الفظائع والمنكرات، وأن مستوى الآداب العمومية لم يكن قد ارتفع إلى ما هو عليه الآن. يضاف إلى ذلك أن الباشا إنما أتى ما أتاه صادعاً بأمر الباب العالي بلا مراء، فمصاب المماليك الأول عند بوفير إنما دبر في الأستانة، فلم لا تكون طامتهم الكبرى مدبرة هنالك أيضاً؟

إلا أن نكبة البيكوات كانت هي البلسم الشافي لجراح مصر وكلومها. فقد مكَّنت محمد علي من إقامة حكومة تفوق، على ما بها من نقائص ومعائب، حكومة السناجقة بمقدار ما تفضل حكومة كليف وهيسنتجز في الهند الحكومات الأمراء الهنود التي قضيا عليها. حتى أصبح في طاقته أن يقوم بأجل الخدم لبلاده وللعالم أجمع. ولقد يرد على هذا بأن أمثال هذه المعذرة لا تغني فتيلاً؛ ولا أصدق من أن أعظم المزايا وأسماها لا يدفع بها عن تهمة الزيغ والتعدي، مهما قل شأنهما. فإذا طولب شخص بدين، لا يقبل منه دفاعاً عن نفسه ادعاؤه أن ماله قد بذل أجمعه في البر والإحسان؛ وإذا سرق رغيفاً لرد غائلة الجوع، لم يدفع عنه أنه أحد ذلك النفر المعدود الذي مرت عليه رزايا دهلي ولكنو. ولكن خليق بالذين هم بحكم مركزهم فوق الروادع العادية، والذين هم معرضون لفتن أشد وأقوى من الفتن العادية، أن يعاملوا بأكثر من التسامح المعهود، وأن

يتلقوا من التجاوز والصفح أكثر مما هو مألوف. وأمثال هؤلاء الأفراد يجب أن ينظر إليهم معاصروهم، كما ينظر إليهم الخلف. ولا يقصد بهذا أن تقلب سيئاتهم حسنات؛ بل توزن حسناتهم وسيئاتهم، فإذا رجحت الأولى كان حقهم ألا يبرؤن من ذنوبهم فحسب، بل يخصون كذلك بكل مديح وثناء. وليس في التاريخ من حاكم عظيم يخليه أي مؤرخ من كل شائبة أو شين، إذا وضع نصب عينيه سيئة أو سيئتين من بين أعماله. وإذا نظرنا بعين الروية والإنصاف في التهمة الموجهة إلى محمد علي، لم نجده قد خرج عن عادات عصره، أو تجاوز أحداً من أبناء جلدته في سيئاته وحسناته. ولن تجد بين مشيدي الدول ورؤوس الأسر الحاكمة في المشرق من يكاد يخلو من اقتراف بعض أعمال القسوة والعسف، وما كان محمد علي بشاذ عن هذه القاعدة. أما البحث فيما إذا كان من الجائز أو من غير الجائز إنشاء أسرة جديدة بمثل هذا الثمن الفادح فمسألة أخرى ليس هذا مقام التعرض لها. وقد قال الوالي نفسه، حينما خاطبه في هذا الشأن أحد السياح الفرنسيين، انه يرضى حكم الذين لا يرون جريمة في مقتل "دوق دنجوين"[26]؛ وكان يعد هذه الفعلة أشنع بكثير من فعلته بالمماليك. على أن أغرب شيء في هذه المأساة أن طائفة المماليك المدربين على ضروب المكر والمكائد، الناشئين في جو من الخدع والدسائس، تزل بهم أقدامهم ويخدعون على أمرهم، وينشبون في أحبولة كان مثلها قد نُصب لمحمد علي منذ عهد غير بعيد. وذلك أن الوالي خورشيد باشا طلب إلى

[26] دوق انجوين احد أفراد أسرة ربون التي كانت تحكم في فرنسا وما على قتله نابليون بدعوى أنه كان يتآمر على اغتياله سنة **1804**م.

محمد علي بكل وقار ورقة أن يحضر إلى القلعة ليخلع عليه خلعة سنية وباشوية جده؛ فرفض محمد علي تلك الدعوة بكل تأدب واحترام.

ومن ذلك العهد رأى الباب العالي أنه مضطر أن يعامل محمد علي معاملة الحليف المستقل لا معاملة التابع القوي. وكان محمد علي لا يستنكف أحياناً من دعوة كبار عماله ليقرأ عليهم عهداً من الباب العالي؛ ولربما ضم طغراء السلطان إلى جبينه بحركة ظاهرها تواضع وباطنها استهزاء. بيد أنه كان في الواقع يفعل كما يشاء، ويتصرف كما يريد؛ ليس هنالك من يجرأ على معارضة أمره، ومنازعة مشيئته. ومع ذلك فقد أدى إلى الباب العالي من الخدمات الجزيلة، ما يفوق التقدير. فهو الذي أعاد إلى الدولة البقاع المقدسة– مكة والمدينة؛ وهو الذي أخضع القبائل المفطورة على حب القتال في بلاد العرب، تلك التي لم يطأ أديم معاقلها الرملية غاز من قبل. وكفاه فخراً أن قبائل الوهابيين المخوفة البطش– تلك الطائفة التي كانت تضطهد أهل السنة من المسلمين، والتي بسطت سلطانها الديني على أنحاء الجزيرة من البحر الأحمر إلى الخليج الفارسي– لم تستطع أن تبدي مقاومة مذكورة في وجه جنوده البواسل. وكان ذلك في موقعة هزمت فيها جموع الوهابيين وجرح زعيمهم الأكبر سعود؛ ثم استولى المصريون على عاصمة ملكه في مجاهل نجد وأعملوا فيها يد النهب والتخريب، وأخذوا ابنه وخليفته عبد الله مع سائر أسرته أسراء، وطافوا بهم شوارع القاهرة في مواكب حافلة.

ولقد أوشك إبراهيم باشا أكبر أولاد محمد علي باشا أن يقضي على حركة اليونان في حرب استقلالهم، لولا تدخل أساطيل الحلفاء في نوارين[27] ويقال أن محمد علي كان يرى في بلاد سورية والمورة منفذين إلى القسطنطينية، وكانت مطامعه لا تخفي على أحد، وشد ما أثارت نار الحقد والبغضاء في صدر الخليفة محمود الثاني الذي حاول اغتيال الوالي غير مرة. ولقد جاءت الأيام محققة لمخاوفه فنشبت بينهما حرب عوان، لولا تعرض الدول الأوربية لكانت نتيجتها في الأرجح اعتلاء محمد علي عرش قياصرة الشرق، وتربع أبنائه اليوم في دست الخلافة .

ومن أهم أعمال محمد علي الحربية وأجلها فائدة تحريره وادي النيل من غزوات البدو القاطنين على حدود الصحراء. فقد مضت دهور عدة وأولئك الأعراب لا يغبون زيارة الوادي في كل عام، إذ ينقضون عليه بخيلهم فيكتسحون سهولة الخصيبة ومزارعه المريعة. فلما أصلاهم محمد علي نار حربه لم يجرأ أحد من زعمائهم، حتى أشدهم إقداماً، على مناجزة أشجع جندي في الإسلام يومئذ؛ وصار أعظم سلالة إسماعيل حمية وأشهمهم أنفاً يحجم عن تحدي ذلك الفارس البطل الذي طالما مزق شمل الجيوش الجرارة، وأرغم أنوف الطغاة المارقين. وكذلك أصبحت خيرات مصر الوفيرة تجنى في أمان وسلام تحت ظلال سيفه. على أن الوالي ما كان ليرضي من هؤلاء الأعراب بمجرد الكف مؤقتاً عن شن غاراتهم؛ بل

[27] نوارين خليج على شاطئ بلاد اليونان. وفي هذا المكان حدثت موقعة بحرية عظيمة بين أساطيل الحلفاء (انجلترة وفرنسا والروسيا) وأساطيل الترك ومحمد علي. وفيها حطمت أساطيل الترك ومصر سنة **1827** (راجع تاريخ مصر عن الفتح العثماني ص **169**).

كان يرى بدهائه وبعد نظره أن نظام جيشه البديع، الذي طالما أحرز به النصر، لن يجدي نفعاً في رد عدوات أولئك العربان المدربين على الكر والفر. فعمد إلى إفساد ما بين رؤساء القبائل البدوية من المحالفة والمعاهدة؛ ثم وثق أو أصر الود والمصادقة بينه وبين القبائل ذات السطوة والبأس، وحبب رؤساءها إليه بما كان يجزل لهم من العطايا، ويخلع عليهم من الخلع، ويقطعهم من الأراضي لمرعى أغنامهم. وكانوا يقابلون هذه المنح وتلك الأيادي بالوقوف على قدم الاستعداد للانقضاض بخيلهم ورجلهم على كل مغير يحاول الفتك بالبلاد. وكذلك ظل يعمل على المبدئ القديم "فرق تسد" حتى وفق في آخر الأمر إلى القضاء التام على سلطانهم .

ولم يكن منهجه في إدارة الشؤون الداخلية سليماً من النقائص. على أن ذلك ليس بعائبه، إذ كان الشعب المصري نفسه لم يصل بعد إلى تكوين فكرة سامية عن ماهية الحكومة. ولا يزال النظام الذي أنشأه في حاجة إلى التهذيب، مع كل ما أدخل عليه من ضروب الإصلاح العدة، فإنه كان في أول أمره مملوءاً بالعيوب. ولكن الذي يفكر في المصاعب التي تعترض الحاكم عند إنشائه من العدم نظام حكومة جديدة في بلاد كمصر، ظلت على مدى أجيال متعاقبة مسرحاً فسيحاً للسلب والاعتداء والفوضى، لا يسعه إلا الاعتراف بالثناء العظيم على صاحب هذا العمل. والواقع أن العالم الإسلامي لم ير منذ انقراض الدولة العربية الزاهرة في الأندلس حاكماً يضارع محمد علي في جليل أعماله، وجميل صفاته؛ فهو يماثل صلاح الدين في عدله وتسامحه؛ ويفوق أشهر خلفاء

بغداد في خبرته ونوره. وبالرغم مما كان في نظام الشرطة من النقص، ومما كان يتحمله الأهلون من الضرائب الفادحة، كان أسن شيخ فيهم لا يذكر وقتاً يداني عصر محمد علي في استتباب الأمن واستفاضة الرخاء. ولا غرو فمنذ عهد "اماسيس" لم يتربع في عرش مصر أمير قوي البأس كمحمد علي يردع غيره عن الظلم والنهب، ويربأ بنفسه عن ارتكاب تلك الدنايا. ولا نزاع في أنه صاحب الفضل الكبير واليد البيضاء على السياح والأجانب، فهو الذي مهد لهم سبيل الأمن في مصر، حتى جعلها تضارع من هذا الوجه إقليم يوركشير، وتفضل كثيراً من أقاليم أرلنده. وأنه لمن السخافة والظلم أن ننصب ميزان المقارنة بين محمد علي وبين أشهر مشاهير الساسة الأوربيين، فما مثلنا في ذلك إلا كمثل الذي يفاضل بين بعض أصحاب المطابع الحديثة في لندن وبين "ونكن دي ورد"[28] الذي كان عليه، قبل التمكن من إصدار الكتاب، أن يصنع بنفسه كل المعدات اللازمة من حروف ومطبعة وحبر وملافط ومصاف.

وأنه لمن العجب العجاب أن يقوم فرد واحد بمثل ما قام به محمد علي من الأعمال الجليلة والمآثر الجمة. شيد المعامل، وأقام دور الصناعة وبنى المدارس وجامعات الطب، حيث تدرس مكتشفات هرفي وغيره على أيدي أساتذة من أكفاء الأوروبيين. يضاف إلى ذلك ما أسسه من المستشفيات، وما أنشأه من المدارس الحربية والبحرية.

---

[28] من مشاهير المشتغلين بالطباعة في أول عهدها عاش في القرن السادس عشر وأقام مدة في انجلترة وكان ألماني الأصل.

وكان محمد علي يكافح في تنفيذ أغراضه صعاباً تفوق حد المعتاد؛ إذ كان يحارب ترهات رجال الدين وأشياع دولة الجهل. يدلك على ذلك أن تشريح الأجسام في مدرسة الطلب قوبل من رجال الدين بكل جفاء واستنكار وسخط بدعوى أن مبادئ الدين الحنيف تنافي ذلك تماماً، وأن العلوم الحديثة ما هي إلا بدعة من بدع أهل الزيغ والكفر. لذلك كانت الأم تفضل بتر سبابة ولدها، حتى يصبح عاجزاً عن الكتابة، على أن تسمح بذهابه إلى مدارس الباشا حيث يكسى ويطعم ويتعلم ويتقاضى مرتباً شهرياً.

وكان من أعماله المرضية أنه جمع كل ما كان متداولاً من العملة التركية الناقصة والمزيفة وكان فيها ضرر بليغ على التجارة لعدم ثبات قيمتها؛ ومع أن ذلك العمل لم ينفذ على أكمل وجه، فإنه عاد على البلاد بالفوائد العميمة والمنافع الدائمة .

ولم يكن محمد علي من الأبطال الذين يسرحون في ميادين الخيال، بل كان رجلاً شجاعاً خشن الطبع نشيطاً مقداماً، لا يتردد قط في سلوك أي سبيل يوصله إلى غايته المنشودة. ولقد كان لمخالطة الفرنسي الآنف الذكر في قوله أثراً باقياً في نفسه لم يمحه تعاقب الأيام والليالي. فكانت أراؤه وميوله فرنسية محضة، إذ كانت في الغالب بعيدة المرمى واسعة النطاق مذكية لكبار الآمال، غير أنها بعيدة التحقيق متعذرة المنال، وكان يظهر في حديثه توقد القريحة الفرنسية ولوذعيتها. وكان شديد الغرام بمناقشة أي شخص يصادفه في أعقد المسائل وأكثرها إشكالاً ويتبع رأيه

بلا فحص ولا روية. وكثيراً ما كان يندفع وراء نزوات خياله ويعمل بأي اقتراح مُعجب يعرض عليه، فلا غرو أن يؤديه ذلك إلى ارتكاب أعظم الأغلاط. من ذلك أنه ضحى أُلوفاً كثيرة من النوبيين رغبة في إنشاء جيش جرار، ولا شك أن ذلك المشروع من أتعس المشروعات التي قام بها، إذ كان من جرائه نضوب معين الأهلين في تلك البلاد الضئيلة السكان وحرمانها أُلوفاً عدة من الأيدي العاملة التي هي في حاجة إليها لزرع الأرض واستغلالها. وقد زاد الطين بلة سعيه لتحويل بلد من أوفر بلاد العالم خصباً إلى قطر صناعي. وكان أول دافع حدا به إلى السير في هذا المشروع الغريب إدخال زراعة القطن في الديار المصرية. ولم يقتنع محمد علي باستعصاء مشروعه إلا بعد تجربة طويلة وإنفاق المبالغ الباهظة وتناقص عدد السكان وعطب الآلات بفعل الرمال وإجماع الرأي العام على استنكار المشروع، لأنه لم يكن كمعظم الأفراد الذين يشغفون بالمشاريع من غير فكر وروية، ثم يسارعون إلى نبذها عند تعذر تحقيقها؛ بل كان يثابر بكل عزم وجلد على معالجة كل ما يرجو تحقيقه ويأمل انجازه، اعتقاداً منه أن العار كل العار في أن يقال عنه أنه خاب في إبراز مشروع من مشروعاته.

وقد قام بإنشاء معمل لتكرير السكر وآخر للتقطير تحت إشراف المستر "برين" ففشل المشروع إذ خرج السكر فذراً كريه الطعم كما خرج الروم مراً رديئاً وكذلك كان نصيب ما أنشأه من أنوال الحرير ومسابك الحديد.

على أن محمد علي قد أدى إلى البلاد خدمة جليلة وأضاف إلى مواردها مورداً غزيراً بإدخال زراعة القطن الذي كان من نوع فائق الجودة كما أسدى إلى القطر نعمة جزيلة بإدخال زراعة اليلج (النيلة) وكثير من الأصناف الأخرى التي جلبها أو وسَّع نطاق زراعتها. ولو أنه اكتفى بصنع الأقمشة المعتادة والمنسوجات الرخيصة لكان ذلك أعود عليه بالفائدة والربح؛ ولكن أفضل من هذا وذاك لو أنه اقتنع بتصدير الخامات من غير أن يعالجها بالصناعة، فإن ذلك كان يكون أنفع للبلاد وأربح له.[29]

وكان لا يزال يندفع بنشاطه المتوقد إلى إدخال كل ضرب من ضروب المستحدثات المبتسرة، ويتعرض بغير حق لنزع ملكيات العقارات؛ وكانت الضرائب التي ضر بها على الفلاحين فادحة للغاية. فإذا عجز بعضهم عن أداء الضريبة ألزم بالتخلي عن أرضه، وكان يُكره القرى على تزويده وتزويد كل رجال الإدارة ما يحتاجون إليه من المؤن بنصف ثمن السوق، وهي ضريبة قاسية لا تقع إلا على فئة من السكان، وكان من العدل أن يشترك في تحملها الجميع. ذلك إلى أنه كان لا ينفك يبث العراقيل والعقبات في سبيل التجارة بكل نوع من أنواع التقييد الجائر؛ فمن هذا القبيل أنه عمد إلى احتكار كثير من المتاجر التي لو بقيت في يد أي إنسان سواه لتضاعفت أرباحها عشرة أضعاف؛ وتلك سياسة

[29] نحن نعتقد أن المؤلف في كلامه على المشروعات الصناعية لم ينصف محمد علي حق الإنصاف، وإذا شاء القارئ أن يطلع على ما يفيد هذه المزاعم ويدحض هذه الأقوال، وأن يقنع ببعد نظر محمد علي وصواب رأيه في مشكلتنا الصناعية، فليراجع تقرير لجنة التجارة والصناعة.

خرقاء لا تليق بحكومة رشيدة على الإطلاق. وكان يبيع بضائعه المحتكرة على طريق النسيئة لتجارة من اليونان والأرمن والسوريين والإفرنج ويخسر بذلك طبعاً مبالغ طائلة. وكان يحدد للصادرات أسعاراً باهظة، حتى أوشك أن يقضي على تلك التجارة قضاءً مبرماً. وجملة القول أن سياسته في المسائل التجارية كانت مثالاً جلياً وبرهاناً ساطعاً على تلك الحقيقة المقررة، وهي أنه ليس بين الناس من هو أقصر نظراً وأقل صلاحية للاشتراع في المسائل التجارية من الذين يمارسون التجارة أنفسهم (لأن مصلحتهم الذاتية جديرة بأن تصرف أنظارهم عن المصلحة العامة).

وبينما هو يلحق الضرر بمصالح الشعب ويفقر بمشروعاته العميقة موارد الخزانة إذا هو يسترسل مع جمحات هواه في معاملة التجار ويغدق عليهم من العطايا السفيهة ما لا يتفق مع الرأي والسداد. وكان شغوفاً بالدخول معهم في مضاربات خرفاء، ويبذر في هذه السبيل مبالغ جسيمة. فكان كلما لج في الخسارة لجوا في الربح. وكان شأنه معهم أن يقرضهم المال والنصيحة في آن واحد فيأخذون المال ويعتذرون عن عدم رده بأنهم قد امتثلوا أمره وعملوا بنصيحته. وإذا اتفق لأحد معارفه من التجار أن يشير في حضرته إلى ما خسره بسبب اشتراكه مع الباشا في عقد أو معاملة لم يتردد الوالي لحظة واحدة في إعطائه **4000** أو **5000** جنيه تعويضاً له مما خسر. ولما كان هو المتصرف المطلق في دخل الحكومة بأجمعه، وهو ما يناهز **3.000.000** جنيه في كل عام، كان من الميسور له أن ينطلق مع هواه في كل ما يزينه له من وجوه الإسراف؛ ولكن الأمر أفضى به إلى الإفلاس فمات وهو مستغرق بالدين.

وكان غرامه بجمع الآلات من جميع الأنواع كولع بعض الناس بجمع طرائف الفنون. وكان قطيع الذئاب الملتفين به من الإفرنج مطلعين منه على موضع الضعف هذا، فجعلوه لأنفسهم مورداً دارا من الربح؛ فكانوا، بمجرد شعورهم بظهور اختراع آلي جديد أياً كان، يحرصون كل الحرص على إعلام الوالي بأمره، فلا يتردد لحظة في طلب نموذج من أرقى أصنافه. وهنالك تسنح الفرصة لعارض الاختراع على الباشا لاجتناء ما يشاء من المكسب غير المشروع، فلا يتذمم من ربح **200** أو **300%** من هذه الصفقة؛ ولا عجب فإن الوالي كان لا يهتم بتدقيق الحساب. وقد ذكر أحد المهندسين الانجليز على أثر زيارته دار الصنعة في بولاق بعد موت محمد علي بمدة وجيزة أن قيمة ما هنالك من ثمين الآلات المكدسة المهملة للصدأ والبلى لا تقل عن **1.200.000** جنيه. ولا أدل على عرافته في الأخلاق الشرقية من مضاء همته في متابعة أرائه ومن شغفه الشديد بإنفاذ رغائبه. والواقع أنه ما كان شيء ليفي بمناه إلا أن يكون في حوزته على الدوام خاتم الملك ومصباح علاء الدين. ومن الأدلة على تأصل هذه الصفات في طباعه حكاية كان يرويها عن نفسه في معرض السرور والانشراح.

وذلك أنه انفق أن وقف ذات مرة في طريقه من القاهرة إلى الإسكندرية، وعزم على حفر ترعة. فأرسل إلى رئيس مهندسي المديرية، فلما مثل بين يديه، بيَّن له طول الترعة المطلوبة وعرضها وعمقها؛ ثم سأله عن الزمن الذي يستغرقه حفرها. فأخذ المهندس قلماً وورقة، وبعد الفراغ من حسابه أجاب قائلاً "إذا أعطاني الوالي أمراً لحاكم المركز

بتقديم العمال اللازمين فيحتمل انجازها في عام". فكان جواب الباشا على ذلك أن أمر خدمه بطرح المهندس أرضاً على ظهره وضربه **200** عصا على أخمصي قدميه. ثم قال له "هاك أمراً بعدد ما يمكن أن تحتاج إليه من العمال؛ وأني قاصد الآن الوجه القبلي وسأعود في ظرف أربعة أشهر، فإذا لم يتم حفر الترعة في يوم إيابي كان جزاؤك عندي **300** جلدة أخرى" وكان الباشا يختم حكايته وأسارير وجهه تفيض سروراً وانشراحاً. قائلاً "ولقد أنجز العمل في وقته بكل دقة".

وكان محمد علي قد طال احتقاره للعقبات واستخفافه بالصعاب وكثر تغلبه عليها وإذلاله إياها، حتى أصبح يجد في مغالبتها نوعاً من اللهو وضرباً من اللذة، ولربما يندفع إلى القيام ببعض الأعمال، لا من باب الاهتمام به ولا لاقتناعه بأي فائدة منه، بل لأنه عمل شاق وحسب. فمن ذلك أنه طلب ذات مرة إلى بعض معتمدي الدول الأوروبية أن يبتاع له باخرة تجري في النيل وراء الشلالات. فأشار المعتمد، وقد تولاه الدهش، إلى انقطاع الخشب أو الفحم من تلك الجهات، وإلى عدم وجود بضائع أو ركاب في حضرته إلى تنقل هناك؛ مستنتجاً من ذلك أن مثل هذا المشروع جدير أن يكون عديم الجدوى عظيم الكلفة. وأشار المعتمد أيضاً إلى صعوبة نقل المراجل والآلات فوق الصخور والدوامات؛ ولكن هذه الاعتراضات ما كانت لتثني الوالي المستبد عن عزمه؛ فأجاب، وهو يشعر بتسلطه على ثلاثة ملايين نسمة (هوّن عليك فلا مانع من حمله قطعاً مفككة على ظهور الألوف من الفلاحين" وإذ ذاك احتدمت بين الوالي والمعتمد مناقشة أفضت إلى قول الأخير أن المشروع يكلف الباشا

100.000 فرنك؛ فاستشاط الوالي غضباً، وقد كل ما لديه من الصبر، ووثب فجاءة من متكئه (وتلك كانت عادته حينما تهيج عواطفه) وأرعد وأبرق قائلاً: "سبحان الله يا سيدي وما يعنيك أنت إذا كان المشروع يكلفني مليون جنيه".

وكانت القلوب من خشية عقابه على وجل شديد، وإن لم يكن من خلائقه القسوة والرعناء والغلظة المفرطة؛ ومن المأثور عنه في هذا الصدد حكاية تروى عن مصدر ثقة. وذلك أن إحدى قبائل البدو كانت تملك بتقادم الزمن حق حراسة قصر شبرى؛ فأقام الوالي ذات يوم إحدى تلك الولائم التي كان جد مغرم بإقامتها لنزلائه من الأوربيين؛ وبعد الانقضاء من الوليمة افتقدوا عدداً كبيراً من أواني الفضة، فنودي شيخ القبيلة، إذ كان هو، قمقتضى العرف، المسؤول عن تصرف قبيلته. وبعد أن زج هذا الوجيه في السجن وهدد بالقتل إن لم يبرز الأواني المسروقة في الحال، طلب إطلاق سراحه بضع ساعات حتى يبحث عنها، على أن تكون أملاكه وأسرته رهائن للبر بوعده. فخلوا سبيله وانطلق هو على الفور إلى القاهرة ميمماً أسواق الرقيق بها، حيث اشترى اثنين من العبيد الطوال القامة الحسنى الشكل، الحديثي العهد بالقدوم من بلاد الحبشة أو سنار. وبعد أن استوثق من عجمتهما وعدم فهمهما حرفاً واحداً من العربية أو أي لغة سواها معروفة في مصر، عاد بهما إلى خيامه؛ ولم يلبث الشيخ أن اهتدى إلى السارقين الحقيقيين. فأقنعهم برد الآنية، وقطع لهم عهداً بأن لا يصيبهم أدنى أذى، وقد بر بوعده. ثم صرف الشيخ المجرمين الحقيقيين ونصح لهم قائلاً أنه من السفه وسوء التدبير منازلة الأسد في عرينه. ثم

حمل العبدين الأواني الفضية، وأسرع إلى شبرى، ومثل بين يدي الوالي فأجزل له العطاء لما أبداه من المهارة في القبض على المجرمين واسترجاع المسروقات. وفي هذه الأثناء وقف العبدان التعسان يتبسمان حاملين الأواني البراقة، وعندهما وطيد الأمل أن ينالا ما ناله سيدهما عن تعطف الوالي وتفضله. فلما سأل الوالي عن المجرمين قدم له الشيخ ذينك العبدين البريئين فما راعهما إلا إلقاؤهما على أديم الأرض وجلد كل منهما خمسمائة جلدة على قدميه.

ومثل هذه الأقاصيص أكثر من أن نأتي عليها في هذه الرسالة. والواقع أن كل فرد كان يخشى ذلك الأسد ويسارع إلى طاعته، بل إن بعض الناس كان يحبه، وينظر إليه بعين الفخر والإخلاص: ذلك الشعور الذي يبعثه في الصدور كل قوي مقدام ألقيت في يده مقاليد الأمور. على أنه قد حان الوقت أن نختم هذا المقال.

كان الوالي يصطاف في قصره الجميل برأس التين ويجعل مشتاه في قصر شبرا. ولم يكن يظهر على بلاطه تلك الأبهة والروعة والفخامة المألوفة في القاعات الجمة والسلالم الفخمة وأنواع الزخرف والتهاويل المعهودة في أوروبا. وكانت قصوره مرتبة على الطراز الفرنسي، تظهر عليها مسحة غريبة من مزيج الجلال والإسراف المعهودين في الشرق وتضم حجرات أنيقة ذات أبواب وشبابيك عجيبة .

وكان الوالي شغوفاً بظهوره في الحفلات الرسمية بأبهة تزيد على أبهة الملوك. وكانت حاشيته مؤلفة من عدد عظيم بينهم أربعمائة مملوك

مرتبون على أفخر نظام وأجمل تنسيق. وكان شديد المغالاة بنفسه عظيم الاعتداد بكرامته، لا يتزل قيد شعرة عن الاحترام الذي يراه واجباً له، حتى لقد كان يعامل أولاده بشدة وعظمة، يدلك على ذلك أن إبراهيم باشا أكبر أولاده كان يرى من المحتم عليه، وقد جاوز الخمسين، أن يمثل بين يدي والده بالخضوع والاحترام الواجبين على أي ضابط مصري رفيع المقام، ثم يجلس على أقصى طرف المتكأ مظهراً بذلك منتهى التبجيل والتعظيم لوالده كما هي العادة في الشرق. ورغما من أن رتبته كانت تبيح له التدخين بالشبك في حضرة الوالي، فقد كان لا يحسر على رفعه إلى فيه بل يضعه بين ركبتيه والخجل بادٍ على وجهه. وقد تبادر إلى ظن البعض أن حرص الوالي على التحفظ بكرامته كان أمراً متكلفاً ومظهراً متصنعاً، ولكن الذين يعرفون بالتجربة وعورة الطريق إلى المجد ويكونون قد تسلقوا ذلك المصعد الزلق جديرون أن لا يلاموا كثيراً إذا تغالوا في تقدير المترلة التي بلغوها والذروة التي تسنموها. فكثيراً ما يكون تبجيل الناس للرجل العظيم العزاء الوحيد الذي يسليه عما فقده من راحة الضمير وعز الطهارة.

وكان محمد علي، على اتصافه أبداً بجفاء الطبع والخشونة، يظهر أحياناً منتهى الرقة وحلاوة الشمائل؛ ولا سيما مع مندوبي الدول الأوربية الذين كان له شغف عظيم بالتفافهم حوله وتقربهم منه؛ ومما يروى في هذا الصدد أنه في حفلة افتتاح القناطر الخيرية غفل القوم لبعض الأمر عند أعداد مقاعد لمندوبي الدول الأجنبية، فأبى محمد أن يجلس على مقعده حتى أصلحت الهادرة؛ وكان سنه يومئذٍ يناهز الثمانين عاماً.

أما في حياته الداخلية فقد ظل أكثر دهره محتفظاً بتلك السذاجة التي طالما امتاز بها عظماء القواد، فكا مطعمه جشباً وشرابه لا يتجاوز الماء القراح. ومع غرامه بالنساء فقد كان بريئاً من التهتك والفجور. غير أنه وصل في أواخر أيامه إلى البذخ والترف، وأسرف في تعاطي النبيذ، شأن "رنزي"[30] و"نابليون". فكانت مائدته إذ ذاك لا تتميز عن موائد ملوك أوربا إلا بما كان يقدم أثناء الطعام من الشبكات المجوهرة، وكان القائم بإعداد طعامه طاهياً فرنسيا، وكانت القهوة تقدم له في فناجين مرصعة بكريم الجواهر، فإذا فرغ من طعامه غمس أصابعه ولحيته في ماء الورد.

وكان لا يذوق النوم إلا غراراً ويستيقظ مبكراً كسائر أهل المشرق. وكان مولعا بالألعاب الرياضية، وقد برع في لعب البرجاس وركوب الخيل.

ومع قلة إلمامه بالقراءة والكتابة كان يستطيع أن يقرأ الرسائل الجلية الخط، ولكنه كان قلما يفعل ذلك حتى أصبح مع تمادي الإهمال يعاني في القراءة مشقة وصعوبة. ومع طولة مقامه في مصر كان لا يفهم العربية إلا قليلاً ولا يستطيع التحدث بها البتة؛ غير أنه قد تعود منذ شبابه درس أخلاق الرجال، وكان يرى في نفسه الكفاءة والمقدرة لذلك. وكان موفقاً في اختيار عماله. فالكلونيل "سيف"، الذي ارتقى في خدمته

[30] من أكبر رجال إيطاليا الذين ظهروا في القرن الرابع عشر. أفلح في تأسيس حكومة هو على رأسها في رومة بعد أن خلصها من الاضطرابات والفتن. ثم طمح إلى توحيد إيطاليا فخاف وقتل سنة **1354**م. راجع كتاب أوربا الحديثة جزء أول ص **85** تأليف عمر الإسكندري وسليم حسن.

إلى رتبة باشا كان من أكفأ القواد وأبرعهم؛ كما كان كلوت بك من أعلم الأطباء وأحذقهم. ولكن الوالي كان شديد الشغف بالتدخل في شؤون رعاياه وأحوالهم الخاصة. وكان فضلاً عن ذلك مفطوراً على حب الدسائس، ومن عاداته أنه كان يعبث بعماله عبثاً خطراً مستهجناً، فيوسعهم خزياً وإذلالاً قبل أن يدخلهم في حظيرة زلفاه؛ وهي عادة سيئة طالما جرت الويل والثبور على أصحابها؛ ومن المحال أن تؤدي إلى نتائج حسنة. والواقع أنها من جميع الوجوه طريقة عوجاء وسياسة خرقاء، قد تنتج عبيداً أرقاء– لا خدماً أمناء. فإن الرجل الذي نُكب في كرامته وابتز من شرفه جدير أن لا يكون شديد الحرص على مراعاة الواجب العام. وغير خليق بالذي لا يزال يكتوي بذكري ما سيم من الخسف وما عانى من الاهتضام أن يكون لديه من الإخلاص والجرأة والتفاني ما يدعوه إلى المخاطرة بإغضاب سيده وإثارة سخطه في سبيل وقايته من بعض الأذى.

ومن أظهر خصال محمد علي أنه كان، خلافاً لعادة الشرقيين، لا يأبه بالخزعبلات ولا يؤمن بالخزافات. ورغم ما يقال من أن حياته أفلتت مراراً من براثن الموت بالمعجزات (ولا مشاحة في ذلك فإن تاريخ حياته حافل بالحوادث التي لا تكاد توجد إلا في عالم الخيال) فإنه لم يكن قط قدرياً. وقد قبض بنفسه على ساحرة دجالة وأماط اللثام عن مينها واحتيالها. أما حنانه الأبوي فكان ضئيلاً ضعيفاً وقد نسبت إليه حكاية سوداء تشير إلى أنه صاحب اليد في القضاء على ابنه طوسون وأخرى

تدل على غرمه الأكيد على قتل أحد أولاده جهاراً ولم يُمنع عن اقتراب ذلك الجرم إلا بعد جهد ولأي.

وكان، على شدة عارضته في القول، ومضاء عزيمته في الفعل، ومع شغفه بالتحدث عن نفسه ومفاخره، وغرامه بذكر مساعيه ومآثره، لا يزال سراً غامضاً ولغزاً مستغلقاً يفوت بدهائه أمكر الماكرين وأفطن الدهاة. وكان سريع الغضب، ولا يكبح له جماح إذا ثارت موجدته؛ ولكنه ربما تبلج أحياناً عن كرم فياض، وعطف رؤوم. وصفوة القول أنه كان، كسائر الناس، قد فطر من تلك الطينة الجامعة لمتفاوت الصفات ومتناقض الخصال. وما غرضنا في هذا المقال أن نزيح بيد الخبث والقسوة ذلك القناع الذي أسدله الزمن على نقائصه وفضائله، ومعايبه ومحامده ولكن خير للإنسان أن يتذكر من آن إلى آخر ما في الطبيعة البشرية من ضروب التناقض ومظاهر التنافر، وأن يتعود النظر بلا دهش ولا اشمئزاز إلى ما في أشد العقول وأقواها من مغامز الضعف ومواطن الخور.

وكان محمد علي ربعة في الرجال ولكنه قد أوتي من قوة الجسم واكتناز العضلات وصلابة العود ما يؤهله لتحمل المتاعب والمشاق التي يكلفه إياها نفسه الطموح وعقله الجبار. وكان صلت الجبين واضحة، عريض الجبهة بارزها، كبير الحاجبين ناتئهما، وكان عادته أن يقرنهما في أكثر أوقاته. أما عيناه فكانتا من ذلك اللون السنجابي الذي يمتاز به عظماء الرجال وكانتا براقتين غائرتي في محاجره، تتقد فيهما أحياناً نار وحشية غريبة تتطاير عنها ألحاظ غضاب لا يقوى على ملاقاتها إلا قليل

من الناس؛ فإذا كان في أوقات سروره ورضاه ألفيت عينيه تتلألأن بنظرات المجون والمكر والمزاح. ولربما امتزج الغضب والرضى في لحظاته امتزاجاً غريباً حتى ليتعذر على المرء أن يعرف أي العاطفتين أغلب عليه وأظهر فيه. وكان مستقيم الأنف عريض المنخرين واسع الفم مهندمه. فإذا أضفت إلى ما تقدم ذقناً عظيمة ولحية شمطاء ارتسم لك محياً قد انطبع عليه صدق العزيمة بطابع لا يبلى، وانتقش فيه مضاء الهمة بحروف لا تمحى .

وقد قضى زمناً طويلاً من عمره وهو يتعمم بعمامة من فاخر الكشمير، ولكنه استعاض منها في آخر أيامه بالطربوش. وكان يرتدي حلة مبطنة بنفيس الفرو، ويتمنطق بحزام من الكشمير يبرق في جانبه نصاب خنجره المرصع بالجوهر، ثم يتمم لباسه سروال كبير مسترسل وحذاء أحمر. وكان يتلألأ على خنصر يمناه– تلك اليد الرخصة الصغيرة التي كانت أشبه بأكف المنعمات من ربات الخدور– درة يتيمة تخطف الأبصار بلمعانها.

بلغ محمد علي من العمر عتياً وهو يرفل في ثوب الصحة ويتمتع بنسيم العافية. ولقد ظل محتفظاً بما أوتي من عجيب النشاط جسماً وعقلاً حتى قبيل الساعة الأخيرة، ولا بدع فإنما يأكل الحديد صدأ الإهمال، لا حرارة الاستعمال. وكثيراً ما يكون العمر الطويل مع صحة الجسم وسلامة العقل ثمرة الكد وجائزة الاجتهاد. وكذلك مضى محمد علي إلى

رحمة ربه متوج بتاج الشيخوخة بعد أن كابد من الأهوال ما كابد، وممتعاً بنعمة السلام والسكينة بعد أن غامس من الحروب ما غامس.

بيد أن السنة الأخيرة من حياته كانت مظلمة الأفق مكفهرة، فقد اختل فيها ميزان عقله حتى فقد الصواب وارتد إلى الطفولة، وكان ذهنه في أثناء تلك الفترة لا يزال شارداً جامحاً ولسانه لا ينفك يهذي ويهرف بالحروب والملاحم والثراء والجواهر. وكان يرى يومئذٍ من الأحلام ما يتضاءل في جانبه كنوز الشرق بدائعه، وطرائفه وعجائبه. ولربما زعم أن عماله اكتشفوا مناجم ألماس فيها أعلى من الفحم أكواماً، والذهب فيها مكدس أكداساً. ولكن قريحته كانت، حتى وقتئذٍ، لا تعدم الإيماض في الأحايين خلال تلك الظلمة الموحشة؛ فبينا تراه صامتاً واجماً يقضي الساعات الطوال وهو جالس على هذه الصفة، إذ ينبته فجأة على ذكر اسم مألوف، أو صهيل جواد، أو رؤية حسام؛ وإذ ذاك يسنح بخاطره أنه كان قائداً عظيماً يقود الجيوش إلى ساحة الوغى .

وقد رحل محمد علي عن هذه الدار في الثالث من أغسطس سنة 1849.

إن الذين ينظرون إلى أعماله وأخلاقه لا تحيز ولا تحامل لا يسعهم غير الإعجاب بذهنه الخصيب، وبراعته النادرة في قيادة الشعوب. لقد افتتح لمصر عصراً جديداً، واستقبل بها عهداً سعيداً، ورفعها من هوة الضنك والشقاء إلى بحبوحة النعيم والرخاء؛ حتى أصبحت اليوم وليس بين سائر الأقطار الإسلامية ما يضارعها في انتشار النور والعرفان أو في

حسن الحكومة والنظام. نحن لا ننكر أنه- كمعظم الذين يجبلون على وجدانات ثائرة وعواطف جموحة، ويبتلون بمحن قوية وفتن خلابة- قد ارتكب هفوات جسيمة. ولكن كل خبير بأحوال المشرق وتاريخه جدير أن يعترف بأن الإسلام لم يخرج إلا قليلاً ممن هم أفضل منه خلقاً، وأكبر نفساً. ولا بدع فلئن كان اسم هذا البطل مخلداً في صدر سجل الفاتحين، فإنه لكذلك مخلد فيما هو خير وأبقى: في سجل المحسنين إلى الأمم والعاملين على إسعاد الشعوب. ولئن وضعه التاريخ، بصفته قائداً، في صف طارق وصلاح الدين فلا جرم أن ينيله، بصفته مصلحاً، قسطاً من ذلك الاحترام الذي يستشعره الانجليز لقائدهم كرومويل، والذي يخالج أفئدة الفرنسيين تلقاء واضع القانون الجليل.[31]

(انتهى بحمد الله وعونه)

[31] نابليون بونابرت.

## الفهرس